

الحض على العلم في الإسلام

مسلم توفيق



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية - طرابلس


الحض على العلم
في الإسلام


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



مسلم توفيق



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية - طرابلس

الطبعة الأولى

1401 من وفاة الرسول ﷺ - 1991 م



بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمـد لله الـذي منَّ علينـا بنعمة الإسلام، وجعل العلم مرقاة وصـولنـا إلى معـرفتـه سبحانه . . فكانت أولى الآيات التي نزَّلها على قلب نبيــه المصطفى ﷺ : ﴿اقــرأ باسم ربــك الـذي خلق * خلق الإنسـان من علق * اقـرأ وربـك الأكـرم * الذي علّم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ .

والصــلاة والســلام على النبي الهـادي محمـد، نبراس العلم ومنـارتـه ورائده. النبي الذي جعل طلب العلم فريضة على أتباعه، وظــلَّ يرفـع من قدر العلماء ويجلّهم ويعـلي من شأنهم، حتى جعلهم ورثة الأنبياء . .

وأسأل الله تعـالى أن يوفقني، في بحثي هذا، إلى التـماس الحق وإعــلانــه، وأن يلهمني سداد الــرأي ويجنبني الـزلـل والخطأ، وأن يعصمني من قول ما ليس لي به علم، فإنه على ما يشاء قدير، وبإجابة الدعاء جدير، وهو حسبي ونعم الوكيل . . .

المؤلــف



مقدمـة

كثيرة هي الافتراءات التي ابتدعها أعداء الإسلام وسوقوها بين أتباعه، يريدون الكيد بها له ولهم.. ولأسباب عديدة لا مجال لعرضها هنا، صادفت تلك الافتراءات ـ للأسف الشديد ـ بعض الآذان الصاغية، بين المسلمين.. بل إن جمهـرة من أصحـاب تلك الآذان، ذوي الإيـمان الضعيف والعقـول المحـدودة علميـاً ومعرفياً، تبنّوا تلك الافتراءات، بعد أن نجحت في إيهامهم بصـواب ما حوتـه مضامينها من مزاعم، ثم راحوا يروِّجون لها، ويجادلون في مزاعمها، ويدافعون عن طروحاتها، بعد أن تراءت لوهمهم (حقائق) علمية ثابتة، لا يرقى الشك إليها من بين يديها ولا من خلفها..!!!

ومن بين أبـرز تلك الافـتراءات وأكثرها إثارة للاستغراب والتعجب، الـزعم بأن الإسـلام (ضـد العلم)..!! ولاظهـار هذه الفـريـة بمظهـر (الحقيقـة)، عمـد مطلقوها إلى تمويه باطلها بما وصفوه الدليل والبرهان على (صـوابيتهـا)،أي بلفت الانتباه إلى الواقع المتخلف للمسلمين اليوم بالمقارنة مع ما بلغه غير المسلمين من تقدم في ميادين الحياة المادية.. وبهدف التضليل والكيـد عدّوا الإسـلام هو المسؤول عن التخلف الحضاري لاتباعه كونه ـ كما زعمـوا ـ يحول بين أولئـك الأتباع وطلب العلم والمعرفة..!! لذا ـ وهنا بيت القصيد الذي أراد المفترون الوصول إليه ـ (إذا كان المسلمون يريدون تجاوز

تخلفهم، واللحاق بركب الحضارة العلمية المعاصرة، فأول ما ينبغي عليهم فعله، هو ترك إسلامهم والتحلل من التزام مبادئه وانتهاج تعاليمه). !!!

وفي الرد على هذا الاتهام المغرض للإسلام بأنه سبب تخلف أتباعه، علمياً وحضارياً، يمكن القول، بداية، إن ما ساعد مصممي هذا الاتهام على ترويجه عوامل عديدة، ربما من أبرزها استشعارهم لجهل المسلمين بدينهم.. أو لنقُل ضعف استيعابهم لأهم نصوصه متمثلة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.. وهو ضعفٌ تزايد بفعل تراخي التزامهم بما حوته تلك النصوص من جهة، وبفعل ما عانوه من سياسات التجهيل التي فرضها المستعمرون عليهم لسنوات طويلة من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى استمرارية الغزو الثقافي الأوروبي لشعوب العالم الإسلامي من جهة ثالثة.. الغزو المبرمج والمُلح للعقل الإسلامي، والذي من أبرز أدواته ـ كما هو معروف ـ طوفان البدع الحديثة، بما حمله ويحمله، كل يوم، من إثارات للشهوات وقلب للقيم والأعراف والأخلاق إلى نقيضها.. ثم إلباس هذا النقيض في كل مجال لبوس التقدم الحضاري والتطور العلمي، حتى غدا المجون تقدماً، والإباحية الجنسية تحرراً، والأمانة والعفة دليلي تخلف، وما شابه من انحرافات لا يمكن لأي عاقل، مسلماً كان أو غير مسلم، أن يستسيغها أو أن يقبل بها..

إذن، ثمة حرب مدروسة ومبرمجة ضد الإسلام والمسلمين، وثمة ردود فعل إسلامية مختلفة على دوافع هذه الحرب وأهدافها والطروحات البديلة التي قرر أعداء الإسلام ترسيخها بفعل هذه الحرب، في المجتمع المسلم،

كبدائل لطروحات الإسلام. . وتتراوح ردود الفعل هذه بين قطبي الرفض المطلق لها وقبولها، في المجتمعات الإسلامية عموماً. . لكن، ومن قبيل الاعتراف بالواقع، لا بد من الإشارة إلى أن مشعلي حرب العداوة ضد الإسلام قد نجحوا في تضليل أعداد كبيرة من أتباعه، عن طريق دفعهم إلى توهم الصحة في تلك المعادلة الماكرة التي يزعم مصمموها أن الإسلام بتحريمه الكثير من إباحيات المجتمع الأوروبي، وفي مقدمتها الجنس وتناول الخمرة والربا وما إلى ذلك، كان حجر العثرة أمام أتباعه في سعيهم إلى الصيرورة متحضرين على النمط الأوروبي المادي، وفي شتى ميادين الحياة التي يعد العلم من أهمها، وفي طليعتها. .

ولكن، هل الإسلام حجر عثرة فعلاً أمام تقدم أتباعه علمياً وحضارياً؟ وما هو الدليل العلمي على كونه كذلك؟ وإذا لم يكن لمثل هذا الدليل أي وجود في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، فهل ثمة دليل نصي في هذين المرجعين الإسلاميين الرئيسيين يمكن أن ينفي عن الإسلام ما يتهمه به أعداؤه؟ وهل يمكن أن نعثر في التاريخ الإسلامي القديم على نجاحات علمية وحضارية عالية المستوى صنعها ودفع إليها حض الإسلام لأتباعه على طلب العلم؟ وإذا كانت هذه النجاحات موجودة فعلاً، وكان الإسلام هو صانع الدوافع إلى تحقيقها، فما هي الكيفية التي صنع بها تلك الدوافع، ولماذا صنعها أصلاً؟

لا تدّعي هذه الدراسة القدرة على تقديم إجابات وافية عن مجموع التساؤلات الآنفة، ذلك أن استيفاء الإجابة عنها يقرب أن يكون عملاً

موسـوعيـاً، في منـاحٍ متعـددة. . لذا، فإن جلَّ ما تطمح إليه هذه الدراسة، إثـارة موضـوع الدفاع عن موقف الإسلام من العلم، وتمهيد الطريق أمام من تأمل أن يوفي هذا الموضوع حقه من الباحثين المخلصين، والله من وراء القصد. .

المؤلــف

الفصل الأول
طلب العلم، في الإسلام، فريضة

المحتويات:

- الإسلام ومبدأ التعليم الإلزامي.
- مدة التعليم الإلزامي في الإسلام.
- العلوم التي فرض الإسلام طلبها على أتباعه.



الإسلام ومبدأ التعليم الإلزامي

لعل من أكثر ما يجذب انتباه الباحث في موقف الإسلام من العلم، ذلك التناقض الصارخ، بين اتهام الإسلام بأنه سبب التخلف العلمي والحضاري الذي يعانيه أتباعه، ولا سيما في العصر الراهن، وبين كون هذا المتّهم بتلك التهمة الباطلة ـ أي الإسلام ـ قد رفع السعي لطلب العلم إلى مرتبة الفريضة، وطالب أتباعه، بتأدية هذه الفريضة على أكمل وجه، ودون تراخٍ أو تكاسل، طيلة فترة بقائهم على قيد الحياة. . ويتضح فرض طلب العلم على المسلمين في الحديث الشريف الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ، والذي يقول فيه: [اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم][1].

ورفع طلب العلم في الإسلام إلى مرتبة الفريضة، يؤكد جدية هذا الدين، في هذه المسألة، كما يؤكد أهمية العلم في بنية العقيدة الإسلامية وتوجهاتها المختلفة. . فليس للمسلم خيار العيش جاهلاً، بل هو ملزم بطلب العلم والتحرر من إسار الجهل وظلماته. . والإلزام

---

(١) ـ رواه البيهقي والخطيب وابن عبد البر والديلمي وغيرهم. الحديث رقم (٣٩٧)، الجزء / ١ /، من كتاب (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (١٣٨).

ـ كما هو معـروف ـ يحمـل بين أبرز دلالاته حتمية وقوع المتحلل منه في الإثم. . وما دام المسلم الحق حريصاً على تجنب الوقوع في الإثم، فلا شك أنه سيكون حريصاً على طلب العلم، يدفعه إلى طلبه كونه فريضة. .

وبـدهي أن يؤدي حرص المسلمين، على تأيدية فريضة طلب العلم، في أي حقبة من تاريخهم، مضت أو لمّا تأت بعد، إلى صيرورة مجتمعهم من أكثـر المجتمعـات تطـوراً وتقـدمـاً وازدهـاراً، في شتى مجالات العلم، وفي مختلف ألـوانـه وميـادينـه. . الأمر الذي يقود إلى القناعة بأن الحقيقة هي نقيض ما يزعمه أعداء الإسلام من أن سبب تخلف المسلمين، ولا سيما في هذا العصر، يكمن في تمسكهم بدينهم، وفي حرصـهم على الالتـزام بتعـاليمـه ومبـادئـه، بل العكس هو الصحيـح. ذلـك أنهم لو كانـوا حريصين على الإلتزام بتلك التعاليم والمبـادىء، فعـلاً، ومن بين أهمهـا طلب العلم، لما تخلفـوا عن ركب الحضـارة العلميـة المعـاصـرة، بل ربـما كانـوا روادها وبُناتها، كما كان سلفهم الصـالـح من قبل. . بتعبير آخر، يمكن القول: إن أحد أهم الأسبـاب الجـوهـرية لتخلف المسلمين علمياً، في الوقت الراهن، هو ابتعـادهم عن دينهم وتحللهم من الالتـزام القـوي والـواعي بتعـاليمـه وفرائضه التي منها طلب العلم. .

وإذا أردنا الدليل العلمي الذي يؤكد الحقيقة الآنفة، فما علينا سوى الـرجـوع إلى بدايـات تاريخنـا الإسلامي، حيث يمكننا العثور

على ذلك الدليل ساطعاً لا تستطيع افتراءات المفترين أن تدحضه أو أن تحجب نور شمسه الساطعة . . فكما هو معروف وثابت، ظهر الإسلام في أمَّة أمِّيَّة، لا علم لأبنائها ولا فلسفة، وليس بينهم من يصح أن يسمى عالماً، في أي ميدان أو مجال . . اللهم إلا إذا عددنا القادر منهم على القراءة والكتابة عالماً، من باب التجاوز لا أكثر . . ولكن حتى أولئك الذين كانوا بين القرشيين يقرأون ويكتبون، لم يتجاوز عددهم سبعة عشر رجلاً قبل ظهور الإسلام، كما يقول البلاذُريّ في كتابه «فتوح البلدان»[2]. هذا بين الرجال، أما بين النساء فالعدد لا يتجاوز الخمسة . . وإذا كان عدد من يعرفون الكتابة ضئيلاً إلى هذا الحد، في قريش، أكثر قبائل العرب تحضراً آنذاك، بسبب نشاطها التجاري الواسع، فلا شك أن عدد الكاتبين والقارئين في غيرها من القبائل أقل، بل يكاد يكون معدوماً[3].

في هذه البيئة التي كان الجهل عاماً بين أبنائها العرب، ظهر الإسلام. وفي غضون فترة زمنية قصيرة جداً، استطاع أن يحقق واحدة من أبرز معجزاته وأهمها، وذلك حين نقل العرب نقلة نوعية مذهلة، بتحويلهم من أمة جاهلة، تقف خارج مضمار التسابق الحضاري بين أمم تلك الحقبة، إلى طليعة المتسابقين في ذلك

---

(٢) ـ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص (١٤٠).

(٣) ـ المرجع السابق، ص (١٤١).

المضـــمار. . فإذا منهم كبـار العلماء والمبـدعـين في شتى المجـالات. . وبـالطبـع، كانت وسيلة الإسـلام لتحقيق هذه المعجـزة فرضـه طلب العلم على أتباعه من جهة، والتزامهم وحماسهم المنقطع النظير لتأدية تلك الفـريضـة، من جهـة أخـرى. . أي التكامل الرائع بين النظرية وتطبيقها العملي. . وما هو الدافع الذي دفعهم إلى الحرص على ذلك الالتزام وأثار فيهم ذلك الحماس إلى طلب العلم؟

بالتأكيد لم يكن دافعاً دنيوياً عرضياً، وإنما كان دافعاً دينياً نشأ، في نفس المسلم آنـذاك، بفعـل تجاذبهـا بين قطبي الطمـع بثـواب الله والخـــوف من عقـــابـه. . فالـذي فرض على المسلم طلب العلم كان الـرســول ﷺ، والرسول وصفه الله بقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾[٤]، وبالتالي فإن أمره من أمر الله. وهذا واضح في قولـه سبحـانه ﴿وما آتاكـم الرسول فخذوه وما نهاكـم عنه فانتهوا﴾[٥]، وفي قوله عزّ وجل ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[٦]. إذن، لا مناص من تنفيــذ الأمــر، إذا كان المسلم حريصـــاً على طاعــة الله والفـوز بثـوابـه. . أما إذا راودته نفسه على العصيان، فسرعان ما كان يتراجع خوفـاً من إنـذار الله له ولأمتـه بما يمكن أن يصيبهم من عقـاب إن هم عصـوا أمـر نبيهـم عليـه السلام. هذا الإنذار المتضمن في قوله تعالى،

---

(٤) ـ سورة النجم، الآية (٣).

(٥) ـ سورة الحشر، الآية (٧).

(٦) ـ سورة التغابن، الآية (١٢).

مخبراً عما فعله بالأقوام الذين عصوا الرسول من قبل: ﴿فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾[٧]، أي «زائدة في الشدة»[٨].

وهكـــذا، وبـين تجاذب قطبي الثـواب والعقـاب لنفس المسلم وعقله، اندفع طالباً العلم.. وهكذا، يكون الإسلام قد سبق الكثير من النظريات والأنظمة الوضعية الحديثة في فرض إلزامية التعليم، وفي تطبيقها عملياً على أرض الواقع، بنجاح مثير للاعجاب.. ولا شك أن اعجـابنـا سيـزداد أكثر حين نعرف أن إلزامية التعليم في الإسلام لا تنتهي عنـد مرحلة معينـة من عمـر الإنسان المسلم، وإنما ترافقه حتى آخر أيام حياته..

مدة التعليم الإلزامي في الإسلام:

في معظم الأنظمة الوضعية المتبعة والسائدة، في عصرنا الحالي، عصـر التقـدم العلمي، للتعليم الإلـزامي فترة زمنية محددة، تبدأ من سن معـينــة وتنتهي في سن معينــة.. ففي بعض البلدان تنتهي هذه الفـترة مع وصـول الطـالب إلى نهايـة المـرحلة الابتدائية، وفي بلدان أخـرى تستمـر هذه الفـترة إلى نهاية المرحلة ما قبل الجامعية.. أما في الإسـلام، فالمسلم ملزم بطلب العلم، منـذ طفـولته الباكرة حتى آخر

---

(٧) ـ سورة الحاقة، الآية (١٠).

(٨) ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم، المجلد الأول، حرف الراء، ص (٤٧٠).

أيـام حيـاتـه . . أي من المهـد إلى اللحد، بمقدار ما تسمح له ظروف حيـاتـه، وأوقـات فراغـه بالاستزادة من العلم . . ذلك أن الناس، في الإسلام، كما يقول رسول الله ﷺ [رجلان: عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما][٩]. فمن الملاحظ، بوضوح، أنه عليه السلام، قد صاغ توصيفـه لأفـراد المجتمـع الإسـلامي بتنكـير الصفـة، فقـال [عـالم ومتعلم]، وبـاستخـدام لفظـة (الناس) كموصوف، وذلك دلالة على شمـوليـة التـوصيف لكـل أفراد المجتمع. فهو لم يخص بتوصيفه طائفة ويستثني أخـرى، كما لم يحدد سنـاً معينة يتوقف الإنسان المسلم عندها عن كونـه متعلماً، أي طالب علم، ويصـير عالمـاً . . وبهذا جعل دورة طلب العلم مستغـرقـة لعمـر المسلم من مبتـداه إلى نهايته . . فالمسلم الحـق لا يشبـع من طلب العلم حتى لو غدا عالمـاً، لأن هذا الطلب يتأصـل في تركيبتـه النفسية، ويصير مع توالي الأيام عادة مستحكمة، تدفعه إلى مزاولتها يومياً، وبشكل عفوي . . وهذا صحيح من الناحية العلميـة إلى حد كبـير، ولـه من البراهين التي تؤيده الكثير مما يمكن العثور عليه بسهولة، في سير العلماء بشكل عام، مسلمين كانوا أو غير مسلمـين . . وكم كان عظيـماً، صلى الله عليـه وسلم، حين أشار إلى هذه الحقيقـة العلميـة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، حين قال فيما رواه عنـه ابن مسعـود ـ رضي الله عنـه ـ [منهومان لا يشبعان: طالب علم

---

(٩) ـ رواه الطبراني عن ابن مسعود، والديلمي عن ابن عباس. الحديث رقم (٢٨٤٦)، الجزء / ٢ /، من كتاب (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٣٢٦).

وطالب دينا][10]. فاستخدامه عليه السلام لكلمة منهوم في وصف طالب العلم تحمل دلالة واضحة على إدراك ذلك المعلم العظيم لاستحكام طلب العلم في نفس طالبه، وفي اندفاعه إلى الاستزادة في الطلب كلما ازداد من بحره عبّاً، فهو لا يرتوي أبداً، بل على العكس كلما ازداد عبّاً من بحر العلم، كلما ازداد تعطشاً إلى المزيد.. وليوضح ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه الحقيقة أكثر، شبه طالب العلم بطالب الدنيا في النهم وعدم بلوغ الشبع. وهو تشبيه صحيح تماماً. فكلنا يعرف أن من استأثر طلب الدنيا بقلبه وعقله، لا يعود قادراً على التوقف عن طلبها، مهما بلغ من الغنى المادي والمجد الدنيوي.. بل إنه ينسى في طلبها نفسه ذاتها، وينسى حتى ربه.. وهو في هذا نقيض طالب العلم الذي ينسى في طلبه دنياه، وينسى نفسه أيضاً، ولكن يصير أكثر ذكراً لربه وأكثر خشية منه سبحانه وتعالى. وهذا ما توضحه الآية القرآنية الكريمة ببيان ناصع لا لبس فيه: ﴿إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماء﴾[11].

إذن، فنحن أمام رؤية شمولية عميقة لطبيعة العملية التعليمية، ولكيفية تأصيل طلب العلم في نفسية الإنسان بشكل عام، مسلماً كان أو غير مسلم.. وانطلاقاً من وضوح هذه الرؤية الشمولية

---

(١٠) ـ رواه الطبراني في الكبير والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعاً. الحديث رقم (٢٦٦٠)، المصدر السابق، ص (٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(١١) ـ سورة فاطر، الآية (٢٨).

أمـام الـرسـول العظيم ﷺ، نراه يركـز على ضرورة شروع المسلم في طلب العلم منذ نعومة أظفاره، مشيراً إلى حقيقة علمية أخرى، وهي أن الإنسـان في صغـره يكون أكثر قدرة على التعلم منه حين يتقدم فيه العمـر، وذلـك لأسبـاب كثـيرة، من أهمها: قدرة الطفل على التفرغ الكـامـل لطلب العلم، وهـو تفـرغ يساعده عليه عدم انشغاله بهموم الحياة بعد، وعدم وقوعه تحت كلكل أعبائها.. الأمر الذي يجعل عقله ووعيه صفحة شديدة الحساسية في استجابتها لما يصلها من معلومات، وفي قدرتهـا على الاحتفـاظ بأكـبر قدر من هذه المعلومـات في خزان الـذاكـرة.. هذا، إضـافة إلى أن تعويد الطفل على طلب العلم منذ بداية تفتح وعيه، وإلزامه بالمواظبة على طلبه، يؤهلانه إلى الاستمرار في طلبـه كبـيراً، وخـلال مراحل عمره المختلفة، بحكم صيرورة هذا الطلب عادة في نفسه، كما مر سابقاً..

لهذا كله، نراه، ﷺ، يهيب بالمسلمـين أن يشـرعـوا في تعليم أبنـاءهم منذ الصغر، لأن العلم في الصغـر كالنقش في الحجـر، ثباتاً وديمـومـة وقـدرة على التأثـير في نفسية الإنسان وسلوكه حين يكبر.. ففيـما رواه أبـو الدرداء عن الرسول، ﷺ، أنه قال: [مثل الذي يتعلم في صغـره، كالنقش على الحجـر، ومثـل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على المـاء][١٢]. وهـذا صحيـح لأن المـرء حين يتقـدم في العمر

(١٢) - رواه الطـبراني. الحـديث رقم (١٧٥٧)، الجزء (١)، من كتاب (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٦٦).

تعيقه مشاغل الحياة المختلفة عن التفرغ لطلب العلم، تفرغاً كاملاً، كما تعيقه عن التركيز، فيصعب عليه الاحتفاظ بما يتعلمه في ذاكرته، لوقت طويل، وهذا ما أشار إليه عليه السلام تشبيهاً بقوله: [ومثل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء]، أي أنه سريع الإمحاء من الذاكرة، سريع إلى النسيان..

لكن هذه الحقيقة، لا تعني إعفاء من كبر ولم يتعلم في صغره، من طلب العلم كبيراً، ومن إيجاد وقت التفرغ اللازم لطلبه.. ذلك أن طلبه فريضة. وبمقدار ما يسببه السعي إلى تأدية هذه الفريضة على المسلم، في كبره، من ارهاق وتعب، بمقدار ما يزداد ثوابه عليها.. وهذا ما يؤكده الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن الرسول ﷺ، والذي يقول فيه: [من تعلم القرآن في شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره، فهو يتفلت منه، ولا يتركه، فله أجره مرتين][١٣]. أي مرة لأنه طلب علم القرآن، ومرة لأنه أصر على تعلمه رغم معاناته عدم القدرة على الاحتفاظ به في ذاكرته بسهولة، شأن من يتعلمه صغيراً ويحفظه... وفي هذا تشجيع للمسلم - وأي تشجيع - على طلب العلم والإصرار على طلبه، في سائر مراحل العمر، مهما كثرت العوائق وعظمت الصعوبات..

---

(١٣) - أخرجه ابن عبدالبر والبيهقي، مروياً عن أبي هريرة رضي الله عنه، المصدر السابق نفسه، ص(١٤٨).

ولكي يرفع صلوات الله عليه درجة تشجيع المسلمين على طلب العلم، صغاراً وكباراً، وإلى أقصى حد ممكن، نراه يبدأ بنفسه في تطبيق ما دعا إليه أتباعه، في كل عصر ومكان، ليجعل من تطبيقه له سنة من سننه التي أوجب على المسلمين اتباعها وعدم الحيد عنها، منذراً من يحيد بخروجه من تابعيته ﷺ، وذلك في قوله المشهور: [من رغب عن سنتي فليس مني][١٤]. فمن المعروف المؤكد أنه عليه السلام كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وقد اصطفاه ربه نبياً وهو ما يزال أمياً، وكان ذلك لحكمة منه سبحانه.. ولكن أميته صلوات الله عليه، لم تمنعه من طلب العلم، والاستزادة منه، حتى غدا مدينة العلم، كما وصف نفسه ﷺ، حسب ما جاء في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً إليه عليه السلام[١٥]. بل إنه، ﷺ، في معرض تأكيده للمسلمين بوجوب اتباع سنته في طلب العلم، بشكل يومي دؤوب، لا كلال فيه ولا تراخي، يصل إلى حد الدعاء على نفسه بالقول، في الحديث الذي روته عنه عائشة ـ رضي الله عنها ـ [إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم][١٦].

(١٤) ـ الحديث رقم (١٤٤)، في (رياض الصالحين)، للنووي، ص (٤٠ ـ ٤١).

(١٥) ـ المقصود حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ: [أنا مدينة العلم وعلي بابها]. رواه الحاكم والطبراني وغيرهما. الحديث (٦١٨)، الجزء (١)، من (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٢٠٣).

(١٦) ـ رواه ابن عدي والطبراني وأبو نعيم، الحديث (١٧٩)، المصدر السابق، ص

تُرى، أبعد هذا تشجيع وحض على طلب العلم في الإسلام؟ وأي نبي قبله، ﷺ، وأي زعيم أو مفكر أو قائد أمة، قديم أو معاصر أو محتمل مستقبلاً، يمكن أن يصر هذا الاصرار على إلزام أتباعه بطلب العلم، والإلحاح على التزامهم بهذا الطلب؟ إنه لم يكتف عليه السلام برفع هذا الطلب إلى مرتبة الفريضة فحسب، وإنما جعله فريضة يومية أيضاً. بل طَالب المسلم بالشروع في تأديتها منذ بداية يومه، على أي نحو يستطيعه، وبأي أسلوب يقدر عليه وتمكنه منه طاقاته وامكانياته. وذلك في قوله، ﷺ، في الحديث الذي روته عنه عائشة، رضي الله عنها: [اغدوا في طلب العلم، فإن الغدو بركة ونجاح][17]. وفي قوله أيضاً: [اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك][18]. والمقصود بالخامسة - كما فسّرها عطاء بن مسلم - «معاداة العلماء وبغضهم»[19].

تُرى - وهذا سؤال يطرح نفسه في هذا السياق - لو أن المسلمين اليوم التزموا بتعاليم نبيهم عليه السلام، الآنف ذكرها، وقيدوا أنفسهم باتباع سننه والسير على هديه ومنهاجه، في طلب العلم، تُرى

---

(١٧) - رواه الخطيب، الحديث (٤٣٩)، المصدر السابق نفسه، ص (١٤٩).

(١٨) - رواه البيهقي وابن عبد البر من حديث عطاء بن مسلم الخفاف عن أبي بكرة مرفوعاً، الحديث (٤٣٧)، المصدر السابق نفسه، ص (١٤٨).

(١٩) - المصدر السابق نفسه، ص (١٤٨) نفسها.

هل صاروا إلى ما هم عليه اليوم من تخلف وتأخر عن ركب الحضارة، أم تراهم كانوا طلائع الحضارة والابتكار ومركز الاشعاع العلمي، في كل المجالات، وفي كل عصر وأوان، وذلك على نحو ما كان سلفهم الصالح، رضي الله عنهم؟

من المؤكد أن المسلمين لو لم يبتعدوا عن دينهم، ولو لم يتحللوا من التزامهم بتطبيق تعاليمه في حياتهم، ولو لم يفضلوا على تلك التعاليم الرائعة، ما جاءت به النظريات والأنظمة غير الإسلامية من قوانين وضعية، لكانوا اليوم، كما كان سلفهم الصالح، سادة الحضارة المعاصرة وروادها، لا آخر من يزحف مكبّاً على وجهه في ركبها المتسارع . .

وهنا، من المحتمل أن يعترض البعض على ما سلف، كله أو بعضه، قائلاً: إن دعوة الإسلام، في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلى طلب العلم، على هذا النحو من القوة، هي دعوة محدودة بنوعية العلم الذي تدعو إلى طلبه . . بتعبير آخر، يمكن صياغة هذا الاعتراض بأن هذه الدعوة الإسلامية القوية إلى طلب العلم، لا تعني مطالبة المسلمين بطلب كل أنواع العلوم، بل تقتصر على مطالبتهم بنوع محدد من العلم هو علم الدين والتفقه فيه من مختلف النواحي . وبالتالي، فإن التزام المسلمين بتطبيق هذه الدعوة المحددة غير الشمولية، كانت بين أهم أسباب تخلفهم في علوم الدنيا، وسبب تأخرهم عن ركب الحضارة الإنسانية المعاصرة قروناً إلى

الوراء، وفي معظم الميادين.. وذلك لعدم أهمية العلوم غير الدينية في مجال التقرب إلى الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ...

لا شك أن الرد على مثل هذا الاعتراض، يتطلب منا الوقوف على نوعية العلم أو العلوم التي جعل الإسلام طلبها فريضة، ومعرفة إن كان ما دعا الإسلام إلى طلبه من العلم، مقصوراً على علم الدين وحده، دون غيره من العلوم الأخرى.. وهذا ما ستحاول الفقرة التالية الإشارة إليه، وإضاءة بعض جوانبه...

العلوم التي فرض الإسلام طلبها على أتابعه:

ليس من المعقول، بالنسبة للإسلام، الدين الذي أرسل الله به خاتم أنبيائه، وارتضاه بوصفه العقيدة الوحيدة المقبولة يوم القيامة من الناس كافة، بعد بعثة الرسول عليه السلام، كما نصّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[٢٠]، ليس من المعقول في شيء أن يرتضي الله لأتباع هذا الدين أن يعيشوا متخلفين في حياتهم الدنيا، يتحكم بهم فيها أعداؤهم، ممن أنكروا هذا الدين وحاربوه، لا لشيء، إلا لأن الإسلام ورسوله قد أمراهم - وحاشا لله أن يكونا قد فعلا ذلك - بالإعراض عن كل ما يتصل بدنياهم، والانصراف انصرافاً كلياً إلى

(٢٠) - سورة آل عمران، الآية (٨٥).

ما يتصل بآخرتهم. . إن الله لو أنه أمر بذلك من دعاهم إلى الإسلام واستجابوا لدعوته، لكان قد وضع بذلك في أيدي أعدائه وأعداء دينه ـ وحاشا له سبحانه أن يفعل ـ المعول الذي يُمَكِّنُ أولئك الأعداء من تهديم الإسلام به، وصدِّ الناس عن الدخول فيه.

صحيح أن الإسلام قد دعا أتباعه، في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلى الزهد في الدنيا، ومدافعة النفس عن التعلق بها وبملاذِّها الفانية، ونعى على من جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم بأنهم حادوا عن جادة الصواب، وبأنهم الأخسرين في الآخرة. . لكن ما من آية كريمة ولا من حديث نبوي صحيح، يدعو إلى الاعراض الكامل عن الدنيا وإلى نبذها وإهمال المرء المسلم جميع شؤونه فيها ما دام حياً. . بل على العكس، هناك تذكير قوي للمسلم بأن لا ينسى نصيبه من الدنيا، ﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾[٢١]. ويقول الله سبحانه أيضاً: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[٢٢]. وفي الحديث الشريف، يروي أبو هريرة رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قوله: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له][٢٣]. والثلاثة، أي

---

(٢١) ـ سورة القصص، الآية (٧).

(٢٢) ـ سورة الجمعة، الآية (١٠).

(٢٣) ـ الحديث (١٣٨٣)، (رياض الصالحين)، للنووي، ص (٢٥٢).

الصدقة والعلم والولد، هي من أمور الدنيا فالأولى مما يزيد عن حاجة المسلم التي يؤمنها له مردود عمله في الدنيا، بأي مهنة اشتغل. والثانية مردود تفكيره وطلبه العلم حتى بلوغه مرتبة العطاء فيه. والثالثة، هي نتاج متعته الحلال مع من اختارها زوجة له، ونتاج تربيتها لذلك الولد تربية صالحة. . ومشهور حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي نهى فيه الثلاثة الذين أعرضوا عن ما أحله الله لهم من متع الدنيا، إذ قرر أحدهم أن يصلي طيلة الليل لا ينام، وقرر الثاني صيام الدهر، وقرر الثالث الامتناع عن الزواج. . لقد خاطبهم، صلوات الله عليه، قائلاً: [أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني][(٢٤)].

وإذا كان الإسلام لم يدع أتباعه إلى الاعراض الكامل عن متع الدنيا الحلال وعن الأكل من خيراتها، فمن المحال، وهو الدين الواقعي إلى أبعد الحدود، أن يأمرهم بالاعراض عن علوم الدنيا وإلى جهلها أو إهمالها، وهو محال لسببين رئيسيين، كلاهما من صلب الإسلام عقيدة ومنطقاً، وهما:

الأول: صحيح أن هذه الحياة الدنيا هي متاع الغرور، وأن الانشغال بها وبما فيها عن الآخرة خسارة للإنسان فادحة مستحيلة التعويض، ولكنها من جهة أخرى، هي الطريق التي اختارها المولى

---

(٢٤) ـ الحديث (١٤٤)، المصدر السابق، ص (٤١).

عز وجل طريقاً للإنسان الذي خلقه فيها، إما إلى جنته أو إلى ناره . .
وبـدهي، ما دامت طريقـاً، أن يعـرف من كلفـه الله بعبـورهـا، وهو الإنسـان، كل مافيهـا إن أمكن، لكي لا يضل ولا يضيع، في مسالكها الكثـيرة والمتشعبـة . . والمعـرفـة علم، وبالتالي، فإن المسلم قبل غيره مدعـو إلى معـرفـة الـدنيـا معـرفة دقيقة شاملة، وإلا ضلّ طريقه إلى خالقـه . . هو مدعـو إلى اكتسـاب هذه المعرفة، لا لذاتها، ولا لتكون سبباً في زيادة تعلقه بالدنيا ونسيانه للآخرة، وإنما لتساعده على معرفة الله من خلال التعرف على ما خلقه في الدنيا من مخلوقات حية وغير حية . .

والـدعـوة إلى هذا اللون من المعـرفـة لا يختلف على صحتهـا ووجوبها مسلمان . . فهي واضحة في آي الذكر الحكيم، في تلك الكثرة من الآيـات القـرآنيـة الكـريمة التي يدعو الله فيها عباده إلى التفكر في الكـون ومـوجـوداته ابتداء من التفكر بالإنسان نفسه، جسداً وروحاً، وانتهـاءً بالتفكـر في الأجـرام والمجرات التي تسبح في ملكوت الله . . . والـدعـوة إلى التفكـر بكـل هذه المخلوقـات ليس من أجـل ترفٍ حضاري، وإنما لأنها أدلة للمؤمن على وجود الله وعظمته ومؤكدات مُثَبِّتَات لإيمانه، مذهبات لما يمكن أن يساوره من شكوك . وستقوم هذه الدراسة بالعودة إلى هذه النقطة، على نحو أكثر تفصيلاً، في الفصل الثاني منها، بإذن الله . .

الثاني: صحيح أيضاً أن هذه الحياة الدنيا ما هي ﴿إلا لهو ولعب

وإن الـدار الآخـرة لهي الحيوان﴾(٢٥)، وصحيح أن ﴿متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾(٢٦)، كما يقول تعالى عز وجل. ولكن الله أراد لمن تبعـوا دين الإسـلام الـذي ارتضـاه لهم أن يكونوا سادة هذه الحياة الـدنيا، وأعـز من فيهـا من بني البشـر. لا أن يكـونـوا تابعـين لغـير المسلمين، أذلاء أمامهم، لا يملكون من أمر دنياهم تصريفاً لشأن أو تحريكـاً لحدث من الأحـداث... فالله أعـز المسلمـين بالإسـلام، وبالتالي، أيعقل أن يأمرهم بما يقودهم إلى تسليم أمورهم ومصائرهم وثـروات أوطـانهم في الحياة إلى أعدائهم وأعداء الإسلام...؟ حاشا أن يأمـر الله أو نبيـه عليـه السـلام المسلمـين بذلك.. بل العكس هو الصحيـح.. فالله أمـر المسلمـين بأن يعـدوا كل ما يستطيعون من قوة لمواجهـة أعـدائهم.. وليس كالعلم قوة في هذه الحيـاة.. ووصفهم بأنهم ﴿أعزة على الكافرين﴾(٢٧)، والجاهل ذليل أمام عدو عالم، الأمر الذي يعني مطالبة الله للمسلمين بأن لا يكون غيرهم أكثر علماً منهم في أيٍّ من مجالات الدنيا، وليس الدين فحسب.. والرسول ﷺ، وضع مبـدأ واضحـاً، يصلح في هذا المجال وغيره، وهو أن [اليد العليا خير من اليـد السفلى](٢٨).. وهـذا يعني أن على المسلم أن يكـون معطياً

---

(٢٥) ـ سورة العنكبوت، الآية (٦٤).

(٢٦) ـ سورة النسـاء، الآية (٧٧).

(٢٧) ـ سورة المائدة، الآية (٥٤).

(٢٨) ـ الحديث (٥٥٤)، في (رياض الصالحين) للنووي، ص (١٢٧).

أكثر من يكون آخذاً، لا في مجال المال فقط، ولكن في شتى مجالات الحياة، لتكون له العزة على الكافرين. . ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[29].

وإذن، وما دام الله قد أراد للمسلمين أن يكونوا، في هذه الحياة الدنيا، هم الأقوى والأعز بين الأمم والشعوب التي لا يدين أفرادها بالإسلام، فهذا يعني أنه قد أراد سبحانه أن يكونوا الأكثر علماً وتقدماً، في سائر أنواع العلوم الديني منها والدنيوي، على حد سواء. . ذلك لأن علمهم الدنيوي يزيدهم عزاً في نظر أعدائهم، ويقوي شوكتهم في مواجهة أولئك الأعداء. . ومعروف في الإسلام أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. . وإذا كان العلم أحد أهم وسائل امتلاك القوة في هذه الدنيا، وامتلاك المسلم لهذه القوة واجب، فبدهي أن يكون طلب الوسيلة الموصلة إلى امتلاكها واجباً أيضاً. . .

وبعد، نخلص من مجمل ما سبق إلى نتيجة واضحة مفادها، أن دعوة الإسلام إلى طلب العلم، هي دعوة شمولية، لا تقتصر في توجيه المسلمين إلى طلب علوم دينهم فقط، وإنما توجههم إلى أن يكونوا رواد علوم دنياهم أيضاً. . وهنا لا بد من وقفة قصيرة عند نوعية الفرض الإسلامي بالنسبة لكل من علمي الدين والدنيا، وبيان هذه النوعية. . .

---

(٢٩) ـ سورة المنافقون، الآية (٨).

من البدهي، والواقعي أيضاً أن يكون طلب علم الدين فرض عين على كل مسلم، وأن يكون طلب ما سواه من العلوم فرض كفاية، إذا قام به عالم أو مجموعة علماء في المجتمع المسلم سقط عن باقي أفراد هذا المجتمع، أما إن خلا مجتمع المسلمين من عالم في أيٍّ من العلوم غير الدينية، كالطب أو الكيمياء أو الفضاء.. إلى ما هنالك من علوم نظرية وتطبيقية، فإن ذلك لا يجوز، وتلحق تبعة التقصير في تأدية هذا الفرض، جميع أفراد المجتمع المسلم..

ومنشأ الواقعية في جعل علم الدين فرض عين، وجعل غيره من العلوم فرض كفاية، يكمن في ضرورة علم الدين لكل مسلم، ليتبين ما أحل له مما حُرِّمَ عليه، وليعرف كيف يؤدي فرائضه وواجباته الدينية المختلفة، وكيف يزداد تقرباً من الله تعالى بالاستزادة من الطاعات.. وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالدين.. ولا شك أن الله لم يفرض على المسلم ما لا يستطيع فهمه واستيعابه من أمور دينه، وخصوصاً في مجال العبادات والمعاملات، فإن عجز عن الفهم أو أخطأه لعلة ما، فقد جعل له مرجعاً ثابتاً يرجع إليه ويستفتيه ويسأله تفسير ما غمض عليه من أمور الشرع الواردة في القرآن أو الحديث الشريف، وهذا المرجع هو «أهل الذكر» الذين أمرنا الله بأن نسألهم فيما خفي عنا أو التبس من أمور ديننا.. وهؤلاء أكثر تبحراً في علوم الدين من عامة المسلمين..

لكن، وكما أنه ليس بقدرة أي مسلم أن يغدو عالماً في الدين،

فمن البدهي أن لا يكون بقدرة أي مسلم أن يصير عالماً في الرياضيات والفلك والفيزياء وغيرها من العلوم، في وقت واحد. . وإذن، فلا بد من تخصص، وتفـرغ للتحصيـل في هذا العلم أو ذاك من العلوم غير الـدينيـة. . ومثـل هذا التخصص، لا يقـدر عليه إلا من وهبه الله من القـدرات العقليـة والاستعـداد النفسي ما يؤهله على العمـل فيه. . ولأن هؤلاء المؤهلين قلة في أي مجتمع، مسلماً كان أو غير مسلم، فقد جعـل الإسـلام فرض طلب هذه الألـوان من العلوم فرض كفـايـة، بحيث لا يقـدم على طلب أي منهـا إلا من يجد في نفسـه القـدرة على ذلـك الطلب والـرغبـة فيـه. . ولهذا، نلاحظ أن علماء المسلمين، من السلف الصـالـح، كان واحدهـم عالماً في دينه بالدرجة الأولى، مبدعاً في علم آخر غير ديني، هو مجال تخصصه وعمله، بالدرجة الثانية. . .

ولمـا كان مدار العلم والعمـل في الإسـلام، وهـدفهما في أي مجال تخصصي هو التقـرب إلى الله وابتغـاء وجهـه، وليس عرضاً من الدنيا قليل، نبغ الكثير من العلماء المسلمين القدامى في شتى المجالات من طب وفلك وجغرافيا وفلسفة. . إلخ. . وما لبث المجتمع المسلم، بعد قرن أو أكثـر من ظهـور الإسـلام، ما لبث أن أصبـح منارة الحضارة في الـعـالم، إلـى أمصـاره يحج طلاب العلم من شتى أصقـاع الأرض ليتتلمذوا على أيدي العلماء المسلمين، في غير علوم الدين. . تماماً كما هو حالنـا اليـوم بالنسبـة للشعـوب الأكثـر تقدماً وتطوراً منا في مجالات العلم المختلفة. . .

وكما أدى تفوق المسلمين علمياً، فيما مضى، حين كانوا ملتزمين بتأدية فريضة طلب العلم على أكمل وجه، إلى صيرورتهم أقوى أمم الأرض وأعزها وأكثرها نفوذاً وسلطاناً آنذاك، أدى تخلفهم العلمي، في العصور المتأخرة، ومن بينها عصرنا الراهن، إلى صيرورة المسلمين أضعف أمم الأرض اليوم، وأقلها عزاً وسلطاناً ونفوذاً. . وكان بين أهم ما ساهم في وصولهم إلى هذا الدرك الأسفل من السلم الحضاري والنفوذ السياسي والعسكري، ابتعادهم عن دينهم الإسلامي، وتفريطهم بالتزام فرائضه التي من بينها فريضة طلب العلم، في كل مجالاته وأنواعه. . .

نسأل الله أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، وأن يعيدنا به إلى ما كان عليه سلفنا الصالح من عزة وسلطان، في كل مجالات الحياة وميادينها، ومن بينها مجال العلم. . العلم بالدين نفسه أولاً ثم بغيره، لأنه لولا جهل المسلمين بعلوم دينهم، لما كانوا قد جهلوا ما سواه من علوم دنياهم، ولما آلت أحوالهم إلى ما هي عليه من سوء وتردٍّ. . . هذه هي الحقيقة التي ربما جهلها بعضنا، والتي يحاول أعداء الإسلام والمسلمين إخفاءها تارة، وتشويهها تارة أخرى. . .



الفصل الثاني

غاية الإسلام من الحض على طلب العلم

أو

قراءة في أهداف العملية التعليمية وغاياتها في الإسلام

المحتويات :

- معرفة الله معرفة واعية .
- تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية .
- تقدم المجتمع المسلم في جميع ميادين العلم والحياة .



معرفة الله معرفة واعية

لا شك أن معرفة الله هي الأساس الأول والأهم للإيمان به وعبادته . . ذلك أن الإنسان - كما هو معروف - لا ينكر إلا ما لم يحط به علمه ، وهو، غالباً ما يكون عدوما يجهل . . ويؤكد - سبحانه - صحة هذا التوصيف للإنسان ، بقوله : ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[1] . وإذا كان الإنسان قد فطرت نفسه على هذه الشاكلة ، فإن الخطوة الأولى الواجب اتباعها في محاولة هدايته هي توفير السبيل أمامه للتعرف على الله ، ثم تأتي بعد ذلك محاولة دعوته إلى الإيمان به ، والدخول في دينه . . .

ولعل من البدهي - كما هو معروف أيضاً - أن اكتساب المعرفة ، أياً كان نوعها أو ميدانها ، لا يتأتى للإنسان إلا عن طريق طلب العلم . . ذلك أن العلم هو سبيل المعرفة . . بل إن المعرفة في أحد أبرز معانيها - كما تشير معاجم اللغة - هي : العلم ، وهي الدلالة على شيء معين . . ومن مشتقاتها اللغوية : التعارف والاعتراف ، وكذلك العرف ، وهو ما استقر في النفوس من جهة شهادات العقول ، فتلقته

---

(١) - سورة يونس ، الآية (٣٩) .

الطبـاع السليمـة بالقبول. وحتى في معناها الدارج اليوم، نلاحظ أن المعرفة هي تحصيل العلم، أو مجموع العمليات العقلية التي نتوسل بها إلى تحصيل العلم بأمر ما. . وعلى هذا، يمكن القول:

إن حاجة الإنسان الغريزية إلى معرفة ما يحيط به، وما ينتظره في آتي أيـامـه، أو بعـد انقضاء أجله، وما شابه من مسائل ملحة، تدفعه طوعـاً أو كرهـاً إلى طلب العلم بهذه المسـائـل، باحثـاً عما يوصله إلى حقـائقهـا. . . وبتراكم نتائج هذا البحث، تتكون المعرفة الإنسانية، في كل مجالات الحياة. .

والبحث الإنســاني عن الخـالق عز وجـل، قديم قدم الإنســان على هذه الأرض. تشهـد على صحـة القـول بقـدمـه، ما تقـولـه لنا المكتشفات الأثرية التي نعثر على بقاياها بين كل فترة وأخرى. . ذلك أن فطـرة الإنسـان السليمـة التي فطـره الله عليها، من مزاياها الرئيسة الـرغبـة في معـرفـة الخالق. . وسرعان ما تتحول هذه الرغبة في النفس البشـريـة إلى جملة من الـدوافع تدفع الإنسان بإلحاح إلى البحث عما يمكن أن يقود إلى تلك المعرفة، ومن ثم إلى محاكمة ما تم العثور عليه من دلالات، محاكمـة عقليـة لإقـرار صحتـه أو بطـلانه. . ومتى تمت القنـاعـة بصحتـه، تم تقبله كحقيقـة. . وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة الإنسـان هذه في بحثـه عن خالقـه عز وجـل، إشارة واضحة فيما رواه لنـا من قصـة سيـدنا إبراهيم صلوات الله عليه، وقد تبين بفطرته السليمــة النقيــة ضلال قومــه، وعلى رأسهم أبـوه آزر، حين رآهم

يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع . .

لقد تحول ابراهيم عليه السلام ببصره وقلبه عن تلك الأصنام، وشخص ببصره إلى السماء باحثاً عن خالقه الحقيقي . . الخالق الذي خلقه وخلق قومه والكون كله، مقتنعاً بأن ذلك الخالق لا بد أن يكون أعظم قدرة من مخلوقه، وبالتالي لا بد أن يكون هو الذي صنع ذلك المخلوق وليس العكس . . وأثناء إجالة بصره في أرجاء السماء أبصر كوكباً يتلألأ نوراً عن بعد، فتراءى لوهمه أن ربما يكون هذا هو الخالق، لكنه لم يسرع إلى الإيمان به قبل أن يتعرف على سماته ومزاياه، ولهذا حين رآه يأفل، أنكر أن يكون ذلك الكوكب هو الله، لأن الله ـ كما هدته فطرته السليمة ـ لا يمكن أن يغيب . . ويتابع إبراهيم عليه الصلاة والسلام البحث ليلة بعد ليلة، وفي كل ليلة يزداد علمه وتزداد معرفته اتساعاً، حتى يصل إلى الحقيقة التي نشد الوصول إليها منذ البدء معلناً أن خالقه وخالق كل شيء هو ذلك الذي فطر السموات والأرض . . .

لنستمع إلى رواية النص القرآني لهذه القصة، ولنلاحظ كيفية تدرج البحث العلمي فيها، عن طريق أبسط قوانين البحث وأدواته، وهو قانون (المشاهدة الحسية)، ثم عرض نتائجه على العقل لنقده وفق مبدأ (الصواب والخطأ)، وصولاً إلى الحقيقة المنشودة . يقول الله عز وجل :

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك

في ضلال مبين . وكـذلـك نُري إبـراهيم ملكـوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكـونن من القـوم الضـالـين . فلما رأى الشمس بازغـة قال هذا ربـي هذا أكـبر فلما أفـلت قال يا قوم إني بريء مما تشـركـون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[٢] .

إذن ، فقـد بدأت رحلة إبـراهيم عليـه السلام ، في البحث عن خالقـه ، من الشـك في ما رأى قومه عاكفين على عبادته من أصنام . . ومـن الـشــك انطلق باحثـاً عن الحقيقـة التي تنسجم مع فطـرتــه السليمة . . وقد ظل عليه السلام ينتقل من حقيقة إلى أخرى ، بإعمال عقله في ما تنقله إليه حواسه ، حتى وصل إلى الحقيقة التي ينشدها . . أي الله الــذي ساعـده ، وقـد رأى حيرتـه وشكـه ، ومـدى جديتـه في البحث ، حتى أوصله سبحـانـه إلى اليقين . . . اليقين الذي هو ثمرة المعرفة التي توسل لبلوغها بطلب العلم . .

من قصة إبراهيم عليه السلام ، آنفة الذكر ، يتبين لنا أن معرفة الله هي أساس الإيمان به . . لأنه متى حصلت للإنسان هذه المعرفة ، حصل التعارف بينه وبين خالقه ، ومن ثَمَّ لا بد أن يقود هذا التعارف بين الخـالق والمخلوق إلى اعـتراف الثاني بالأول سبحانه ، والإيمان به

(٢) ـ سورة الأنعام ، الآيات (٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩) .

إيماناً يقينياً راسخاً وواعياً، وهو ما صار إليه سيدنا إبراهيم عليه السلام في ختام رحلته . . . وبالطبع، ، فإن مثل هذا الإيمان له من القوة ما يحول دون تحوُّل صاحبه عنه، تحت أي ضغط، وفي أي ظرف من الظروف اللاحقة . . أما من كان إيمانه سطحياً، أو مجرد إرث عن والديه، أي دون بحث ذاتي من قبله، فغالباً ما يكون تحوله إلى النقيض، أي إلى الكفر، تحولاً محتملاً . .

ولكي لا يكون إيمان المرء، وخاصة في الإسلام، على هذا النحو من الهشاشة وعدم الثبات، نتيجة سطحيته، نلاحظ أن الله في كتابه الكريم، يوجهنا الوجهة الصحيحة، إلى كيفية الإيمان به إيماناً قوياً، وذلك عن طريق دعوتنا إلى التعرف عليه أولاً، وتحذيرنا من مغبة سلوك أولئك الجاهلين الذين عطلوا عقولهم عن التفكير، واكتفوا باتباع ما وجدوا عليه آباءهم، دون أن يمحصوه ليتبينوا مدى صحته من خطئه . . يقول ـ سبحانه ـ ناعياً على هؤلاء تعطيلهم لعقولهم: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾[3].

إذن، لا بد من العلم أولاً، ذلك أن العلم مفتاح المعرفة، والمعرفة سبيل الوصول إلى الإيمان الصحيح بالله . . ولهذا ركز الإسلام على ضرورة طلب العلم . . بل إن الله سخر من أولئك الذين يجادلون

---

(٣) ـ سورة المائدة، الآية (١٠٤).

فيـه بغـير علم، أي دون معرفة له ودون أن يكون بين أيديهم البرهان القاطع على ما يزعمونه. . فقال عز من قائل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغـير علم ولا هدى ولا كتـاب منـير﴾[٤]. أي لمجـرد الجدال، ولمجرد إثبات ما هو خاطىء، لأنه يوافق ما تدعوهم إليه نفسهم الأمّارة بالسوء، وعقولهم الضالة.

وبعد، ثمة سؤال يطرح نفسه في هذا السياق وهو: ما الحكمة من جعل معرفة الله أساساً للإيمان به سبحانه؟

سبقت الإشـارة إلى بعض جوانب هذه الحكمة. . فمعرفة الله على أسـاس علمي متـين تثبت إيـمان العبـد به سبحـانـه، وتقيـه من احتمالات التحول إلى الكفر. . لكن هناك جوانب أخرى هامة أيضاً لتلك الحكمة، ومن أبرزها:

١ ـ الاقتنـاع بالقـدرة المطلقـة لله عز وجـل. هذه القـدرة التي يمكن الاستدلال عليها من استقراء مظاهرها الكثيرة المبثوثة في أرجاء الكـون الفسيـح. . من خلق السـماء والأرض ومـا فيهـما وما بينهما من أحيـاء وأشيـاء لا يعلم عددهـا وأنـواعهـا إلا الـذي خلقهـا. يقـول سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[٥]. ومتى اقتنـع الإنسـان بقـدرة الله المطلقة اندفع إلى عبادته

---

(٤) ـ سورة الحج، الآية (٨).

(٥) ـ سورة فصلت، الآية (٥٣).

دون تردد، ليس بدافع الخوف والخشية فحسب، وإنما بدافع الحب لصاحب هذه القدرة أيضاً.

أمر آخر يسهله على الإنسان اقتناعه بقدرة الله المطلقة هو تصديق رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم، والتوصل إلى تعليل مقنع لما أتى به بعض أولئك الأنبياء من معجزات خارقة للمألوف.. فمن يؤمن بقدرة الله على كل شيء يسهل عليه الاعتقاد بإمكانية تحول العصا في يد موسى عليه السلام إلى أفعى حقيقية، والاعتقاد بإمكانية تسبيح الحصى في كف النبي ﷺ، وما شابه من معجزات.. ذلك أن الذي خلق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه قادر ولا شك أن يضع بين يدي أنبيائه ورسله مثل هذه المعجزات..

ومتى استقر مثل هذا الاعتقاد في نفس الإنسان وخاطره سهل عليه الاقتناع بإمكانية بعثه بعد موته وفناء جسده، وبأن هناك يوم حساب، وبأنه صائر حسب نتيجة هذا الحساب إلى الجنة أو النار... بتعبير آخر، إن معرفة الله، وما تقود إليه هذه المعرفة من اقتناع المخلوق بالقدرة اللامحدودة لخالقه، تمكنه من الإيمان بالغيب الذي هو أحد أهم أركان الإيمان، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[٦].

---

(٦) ـ سورة البقرة، الآيتان (٢ ـ ٣).

٢ ـ طاعة الله والالتزام بشرعه: فالإنسان لا يمكن أن يطيع مجهولاً بالنسبة له.. وبالتالي، فإن امتثال الإنسان لما أمر الله به، لا يمكن أن يتأتى إلا بعد معرفة هذا الإنسان لصاحب الأمر. وربما لهذا قرن الإسلام عصيان أوامر الله بالجهل. والجهل هنا ليس المقصود به الجهل بتلك الأوامر، فهي معروضة معلنة على الناس أجمعين، وإنما الجهل بالله ـ سبحانه ـ الذي أمر بها.. لأنه لا يعقل أن يعرض عن أمر الله إلا جاهل. يقول سبحانه: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾[٧].. بل إن الله جعل المنكر لأوامره والمعرض عنها كالأعمى، وذلك في قوله سبحانه: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾[٨]. وواضح أن العمى هنا هو عمى القلب وليس عمى البصر. أما غاية التشبيه، فيمكن القول ـ والله أعلم ـ أنه كما لا يمكن أن يطيع أعمى البصر من يأمره بالإشارة، لأنه لا يراه ولا يرى إشارته، كذلك أعمى القلب لا يمكن أن يطيع أمر الله، لأنه لم يعرف الله أصلاً حتى يطيعه.

٣ ـ الثقة بالله عز وجل.. فكما أن معرفة الله تساعد على طاعته، كذلك تساعد على الثقة به والاتكال عليه والاطمئنان إلى قضائه وقدره.. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يثق بمن لا يعرف.

---

(٧) ـ سورة الأحقاف، الآية (٣).

(٨) ـ سورة المائدة، الآية (١٩).

وبالتالي، فإن الثقة هي حصيلة تعارف أي طرفين ومعرفة كل منهما للآخر معرفة عميقة وواضحة. . وما دامت معرفة الله بالإنسان متحققة حاصلة حتماً لكون الأول سبحانه هو الخالق للثاني، وبدهي أن يعرف الخالق مخلوقه أكثر مما يعرف هذا المخلوق نفسه، فلكي تكتمل هذه المعادلة، لا بد أن يسعى طرفها الثاني، أي المخلوق إلى معرفة خالقه. إذ متى تحققت له هذه المعرفة، هدأت نفسه واطمأنت، وغمرت قلبه الثقة بهذا الخالق العظيم. . الثقة بما أرسل به رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم، والثقة بوعد هذا الخالق ووعيده، بثوابه وعقابه، بجنته وناره، بمغفرته وغضبه، وهكذا. . ومتى استقرت الثقة في الروع على هذا النحو، استطاع المخلوق أن يتكل مطمئناً على الخالق، وأن يستسلم لمشيئته راضياً. . وباتكاله عليه واستسلامه له سبحانه، يكون قد تجاوز دائرة ضعفه وما يعج بها من مخاوف وشكوك واضطرابات، وتحول إلى كائن قوي لا يرهب في الله أحداً، قانع لا يخاف جوعاً ولا فقراً، أبيٍّ لا يذل لغير الله ولا يتضع إلا له. . إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر متأملاً الثواب من عند الله. .

إن هذه الثقة تسبغ السكينة على قلب المؤمن فلا يجزع ولا يفزع، ولا ييأس ولا يمل، وكذلك لايعصي الله ولا يقنط من رحمته ومغفرته إن عصاه. . إنها علاقة حب عميقة سامية تقرب العبد من خالقه، وتفيء عليه من بركات الله. . فالإنسان يثق بمن يحب،

ويحب من يثق به، ولا يمكن أن يحب أو يثق، إلا إذا عَرِفَ، ولهذا وجبت معرفة الله كأساس للإيمان به..

وبعد، فما سبق ليس إلا غيض من فيض حكمة الحث على معرفة الله وطلب العلم لبلوغ هذه المعرفة.. وسنلاحظ فيما سيأتي جوانب أخرى من هذه الحكمة، مبثوثة في ثنايا الحديث عن غايات الإسلام من حض أتباعه على طلب العلم..

تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية

من المؤكد أن إعلان المرء عن انتسابه لعقيدة ما لا يكفي لصيرورته واحداً من أتباعها. بل لا بد له قبل أن يصير كذلك من أن يقطع شوطاً بعيداً في طلب العلم بمبادىء هذه العقيدة التي انتسب إليها، وبتعاليمها، ومن ثم لا بد له أن يبدي ولو حداً أدنى من الالتزام بتلك المبادىء والتعاليم في سلوكه الحياتي.. ولا يختلف الأمر في الإسلام عن غيره.. فالمرء لا يصير مسلماً حقيقياً لمجرد اعلان انتسابه إلى هذا الدين، بل لا بد له للصيرورة مسلماً من التعرف على مبادىء الإسلام أولاً، والإيمان بها.. ثم لا بد له من معرفة الحدود التي نصّ عليها الشرع الإسلامي، وفصل بها بين الحلال والحرام، وبعد أن يعرف هذه الحدود لا بدّ له أن يلتزم بها في مسلكه الحياتي التزاماً قوياً، وذلك على خلفية إدراكه ووعيه لما ينتظره من ثواب يؤجر به على ذلك الالتزام، ولما يترتب عليه من عقاب، في الدنيا والآخرة، إن هو تحلل من الالتزام بأي حد من حدود الله.. هذا كله، فضلاً عن ضرورة معرفته للفرائض التي فرضها الإسلام على أتباعه، ولكيفية تأدية كل فريضة منها..

إذن هناك الكثير مما على المسلم أن يتعلمه ويعمل به ليصير

مسلماً حقاً. . . فتعاليم الإسلام ـ كما هو معروف ـ لا تقتصر على هذا الميدان أو ذاك من ميادين الحياة، بل تشمل تلك الميادين كافة. . فهي منظومات متكاملة مترابطة من القوانين الدقيقة، لا تترك جانباً من حياة الإنسان دون أن تبين له كيفية السلوك فيه. . بمعنى أنها تنتظم وتنظم مختلف مناحي سلوك المرء وتصرفاته ومعاملاته، سواء على مستوى علاقته مع ربه، أو على مستوى علاقته مع غيره من أفراد المجتمع الإنساني الكبير، مسلمين كانوا أو غير مسلمين. .

فعلى المستوى الأول، أي مستوى العلاقة بين العبد وربه، ثمة العديد من الفرائض التي لا يصح إسلام المرء دون تأديتها تأدية صحيحة. . وهذا يحتم على المسلم أن يتعلم ما هي هذه الفرائض، وما هو ميقات كل منها، وكيف ينبغي أن يؤديها، وما الغاية من تأديتها. . وغير ذلك مما يُعرف في الفقه الإسلامي بأحكام العبادات. . وإلى جانب الفرائض هناك نوافل يزداد العبد بتأديتها تقرباً إلى الله. ولذا، فإن كان هذا العبد حريصاً على محبة الله له ورضوانه عليه، نراه حريصاً على تعرف تلك النوافل وعلى تأديتها ما أتاحت له طاقاته وظروف حياته إلى تأديتها سبيلاً. .

وليست الفرائض والنوافل هي كل ما ينظم علاقة العبد بربه في الإسلام، بل هناك وسائل اتصال كثيرة أخرى، تبقي المسلم في دوحة الرحمة الربانية ونورها الغامر العظيم. . ومن هذه الوسائل الاكثار من ذكر الله ـ سبحانه ـ ومن قراءة القرآن، والصلاة على الرسول عليه

السلام، والاكثار من الدعاء والتفكير وغير ذلك مما هو معروف ويصعب حصره جميعاً في هذا المقام. .

ولكن، لا يكفي أن يؤدي المسلم ما عليه من فرائض، وأن يضيف إليها ما عرفه من نوافل، حتى يصير مسلماً حقاً، بل لا بد له أيضاً من أن يعرف قوانين الإسلام التي تحكم وتنظم سلوكيات الفرد المسلم في كل ميدان من ميادين الحياة، وتنظم علاقات هذا الفرد مع غيره من أبناء دينه، ومع غير المسلمين أيضاً، بل حتى مع عالمي الحيوان والنبات كذلك. . وهذا يعني أن على المسلم أن يطلب العلم بكل تلك القوانين، وأن يحرص على مراعاتها في حياته كيلا يقع في إثم ومعصية. .

من جملة ما سبق، يتبين لنا أن الإسلام قد وضع قوانين شاملة لكل مناحي حياة المسلم، ولم يترك له عذراً يعتذر به إن أخطأ أو ضل إلا أن يكون جاهلاً ببعض تلك القوانين أو بها جميعاً. . وبدهي أن الجهل ليس عذراً، أو هو العذر الأقبح من الذنب إذا جاز التعبير. . وشمولية التشريع الإسلامي وقوانينه الناظمة لكل ما يتصل بحياة المسلم، والتي أوجز الله الإشارة إليها في محكم تنزيله بقوله سبحانه: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[٩]، هذه الشمولية تضع المسلم أمام مسؤولية كبيرة لا مناص له من النهوض بها، وهي مسؤولية السعي

---

(٩) ـ سورة الأنعام، الآية (٣٨).

الـدؤوب والجـاد في طلب العلم بكـل تلك القـوانـين والتعـاليم حتى يتسنى له العمـل بها والتـزامها في حياته، إن أراد ـ حقاً ـ لقاء ربه وهو راض عنـه. . ومن هنـا نتبين الحكمة من جعل طلب العلم فريضة في الإسـلام. . فلا مجال للجهـل في هذا الـدين، ولا للغفلة أو الكسل، ولا عذر عن التقـاعس في طلب العلم لمسلم إلا لعلة قاهـرة تمنعـه من طلبه. . وبالطبع، لم يجعل الإسلام طلب العلم بكل ما سبق ذكره من قوانـين وتعـاليم فرض عين على كل مسلم ليشق على أتبـاعـه أو ليرهقهم بل على العكس، فإن هذا الفرض هو من قبيل رحمة الله بهم أن تزل أقـدامهم في هذه الـدنيـا، فإذا بهم يُضَيِّعـون دنياهم وآخرتهم معاً. . وهذا ما يشير إليه الله سبحانه بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[١٠]. .

إذن، ليس الإسـلام مجرد هويـة، أو مجرد انتـماء لفظي نعلنـه باللسـان فإذا نحن مسلمون. . بل الإسلام علم بشرع الله وحدوده، وعمـل بهذا الشـرع وسلوك. . هو تطبيق صارم للتعاليم الإلهية المبثوثة في القرآن الكريم وما صح من الحديث النبوي الشريف. . . الإسلام منهـج فكـري وسلوكي متكـامـل، ينهجـه المسلم بهدف الوصول إلى طاعـة الله الـذي عرفـه وأحبه، وبهدف الوصول إلى رضوانه في الدنيا والآخـرة. . وهـو حين يلتزم هذا النهج، يسلم من الزلل على المستوى الـفـردي، ويـسـلم الـذيـن حولـه من شره وأذاه على المـسـتـوى

---

(١٠) ـ سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

الاجتماعي . . إنه منهج للسلوك المادي الحياتي بقدر ما هو منهج للارتقاء الروحي . . . وبقدر ما يحرص المسلم على تطبيق هذا المنهج بقدر ما يتعافى فرداً، وبقدر ما يتعافى مجتمعاً . .

وبالتالي، فإن ما نجد عليه مجتمعات المسلمين المعاصرة من انحطاط أخلاقي وحضاري، ومن تهتك وانحراف سلوكيين، ومن تضعضع وضعف إزاء المجتمعات غير الإسلامية، ليس مصدره تمسكهم بأهداب إسلامهم، بأصوله وتعاليمه ومبادئه، كما يزعم المفترون، بل العكس هو الصحيح. إن أولئك المفترين يزعمون أن انصراف المسلمين إلى طلب علوم دينهم وتعاليمه حرمهم من طلب علوم الدنيا، ولذلك تراجعوا علمياً وحضارياً، وسادهم الجهل والتخلف . . وليس هذا صحيحاً، بل إن جهلهم بتعاليم دينهم وعلومه هو سبب تخلفهم في كل مجالات الحياة، دينياً ودنيوياً، وسيتأكد لنا ذلك بجلاء أكثر حين ننتقل إلى الحديث عن حض الإسلام على طلب علوم الدنيا إضافة لطلب علوم الدين . .

كما أن جهل مسلمي اليوم بتعاليم دينهم قادهم إلى الابتعاد عن روح هذا الدين وقيمه ومبادئه العظيمة، فإذا بهم في كل واد يهيمون، وإذا بأعدائهم ينشطون في غزوهم فكرياً وثقافياً ليضعوهم في مؤخرة الركب الحضاري . . ومع تراكم الأخطاء والانحرافات ضاع مسلمو اليوم بين المبادىء المستوردة والعقائد الفاسدة والبدع التي لا صلة لها بصلب الدين ولم يُنزل الله بها من سلطان . . ولن يعود

المسلمون إلى ما كان عليه سلفهم الصالح من قوة وعزة وتقدم في مختلف مجالات الحياة إلا إذا أعادوا قراءة تعاليم دينهم قراءة واعية، وفهموا جوهر هذه التعاليم وعملوا بها، بعيداً عن الهرطقات والتأويلات التي يزعمها أعداء الإسلام والتي ظاهر أغلبها العلم وباطنه الرغبة في تقويض العلاقة بين المسلمين ودينهم..

لقد أدى جهل أكثرنا بالإسلام إلى تحول خطير في رؤيتنا لتعاليم شرعه الحنيف، وإلى طغيان الكثير من البدع على أصول هذا الدين ومبادئه في أفهامنا.. فإذا القرآن وسيلة للتبرك، أو للتلاوة على أرواح الموتى، نسمعها بآذاننا دون أن نفهم منها إلا اليسير.. وليس من أجل الموتى ورحمتهم أنزل الله قرآنه العظيم، بل من أجل الأحياء ليكون دستوراً لحياتهم ومصدراً لسلوكياتهم وتحريضاً لعقولهم على المزيد من التفكير والابداع.. ليس القرآن كتاب قصص فقط، وليس كتاب تعليم للغة العربية.. وليس وليس.. بل هو خطاب الله للناس، وما أحرانا أن نصغي لهذا الخطاب، وأن نعمل بما يأمرنا به صاحبه لننجو من عذاب يوم عظيم.. إنه دليل عمل وسلوك نحن مطالبون أن نتقيد به في دنيانا هذه، كما فعل رسولنا العظيم الذي بلغ تمثله للقرآن ذلك الحد الذي صار فيه القرآن خلقاً له ﷺ.. وأي فخر للإنسان أن يوصف بأن خلقه هو القرآن، الكتاب الإلهي الذي يهدي إلى الأقوم ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[11].

---

(١١) ـ سورة الإسراء، الآية (٩).

وأخلص من كل ما سبق إلى تأكيد الفكرة الهامة التالية : إن دعوة الإسلام إلى طلب العلوم الشرعية ، وجعل طلبها فرض عين على كل مسلم ومسلمة ليس هدفها صرف المسلمين عن دنياهم وإبعادهم عن طلب العلوم الأخرى ، كما يزعم البعض اليوم . . بل العكس هو الصحيح . . فالمسلم حين يزداد علماً في دينه ويزداد تبحره وتفقهه في هذا الدين يشعر أن عليه واجباً آخر هاماً وهو تحصيل العلم في كل شيء . . لأن الإسلام ـ كما مر سابقاً ـ دين متكامل لا اهمال فيه لشيء من أمور الحياة وشؤونها . . ولنلاحظ كيفية ترابط الطلبين طلب علوم الدين وطلب علوم الدنيا في الرؤية الإسلامية . .

إن المسلم حين يتعلم علوم دينه ، وتعلم القرآن من أهم هذه العلوم ، يتبين له أنه مطالب بإعمال فكره في مظاهر هذا الكون الفسيح ، وفي محاولة اكتشاف أسراره وقوانينه ونواميسه ، فإذا به يندفع طائعاً ملبياً لهذه الدعوة الإلهية ليغدو بالإضافة إلى كونه عالماً بدينه عالماً بشتى العلوم الأخرى . . والفرق في هذه الحالة بينه وبين العالم غير المسلم ، بغير علوم الدين ، هو فرق في الدافع والهدف . . فدافع العالم غير المسلم دنيوي ، وبالتالي فقد يكون هدف ابداعه ضاراً مؤذياً لمجموع المجتمع البشري ، أما دافع العالم المسلم فهو الحظوة برضى الله والتقرب إليه ، وبالتالي فإن هدف إبداعه لا بد أن يكون خيراً كله . . خيراً له ولمجتمعه الإسلامي وللبشرية جمعاء . . هكذا فهم سلفنا الصالح الإسلام ، وبهذا الفهم صاروا رواد العلم والحضارة في

عصرهم، وصارت بلادهم محجاً لطلاب العلم من مختلف أصقاع الأرض، وصارت دور العلم في بلادهم منارات تهدي الوافدين إليها نحو مسالك الخير والرقي في الدنيا والآخرة.. لقد كانوا - رضي الله عنهم - كلما ازدادوا رسوخاً وتعمقاً في علوم دينهم كلما ازدادوا إقبالاً على تحصيل غيرها من العلوم، وكلما ازدادوا ابداعاً ورقياً في سائر العلوم التي طلبوها وحصلوها.. ولكن ما إن بدأ المسلمون ينصرفون عن علوم دينهم حتى بدؤوا ينصرفون عن غيرها من العلوم أيضاً.. وظل الانحطاط يزداد في مجتمعاتهم حتى صاروا إلى ما هم عليه الآن من تخلف مريع عن ركب الحضارة المعاصرة.. لقد ضلّوا في الدين والدنيا معاً.. ضلّوا لأنهم تركوا كتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، مع أنه حذرهم من ذلك بما نصّه: [تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبداً, كتاب الله وسنتي]، أو كما قال عليه السلام.

وأختم قولي في هذا المجال بالإشارة إلى حديث آخر لرسول الله ﷺ يقول فيه: [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين](١٢) وكم هو صحيح وصادق هذا القول.. فعلى خلفية ما سبق ذكره، يتضح لنا أن المسلم يزداد وعياً وإدراكاً وعلماً بكل شيء في هذه الحياة بقدر ما يزداد فقهاً في دينه وعلوم هذا الدين..

---

(١٢) - رواه معاوية، متفق عليه، الحديث (١٣٧٦)، في (رياض الصالحين)، للنووي، ص (٢٥٢).

تقدم المجتمع المسلم في جميع ميادين العلم والحياة

ثمة مقولة في غاية المكر يروج لها بعض أعداء الإسلام، محاولين إيهـام المسلمـين بصحتهـا عن طريق اصطنـاع الموضوعية في صياغتها وطرحها. ومفاد هذه المقولة أن الإسلام يعد، في زمن ظهوره قبل أكثر من أربعـة عشـر قرنـاً، أحـد أهـم الثـورات الطموحة والجيدة في الفكر البشري، كما يعد واحداً من أهم مراحل تطور هذا الفكر نحو الأفضل والأرقى. ولا أدل على ذلك من تلك النقلة النوعية الباهرة التي قام بها الإسـلام بالنسبـة للعقل العربي آنذاك، حين جعل هذا العقل يرتقي من مستـوى التفكـير الحسي المحـدود إلى مستوى أرقى، وذلك حين ألغى عبـادة الأوثـان التي تمثـل مستوى فكرياً بدائياً وشديد التخلف، ليحل محلها عبادة الإله الواحد الكلي القدرة والذي لا يمكن تصويره أو حتى تصـور ملامـح محددة له.. ذلـك أن هذا الإلـه - على حد تعبير أصحاب هذه المقولة - يحتاج الإيمان به إلى تطور عقلي يرقى بالإنسان إلى مستوى القدرة على التفكير المجرد بما لا تدركه الحواس مباشرة.. وكـذلـك ساهم الإسـلام، في هذا الإطـار من التطـويـر، بإحـداث تغيـيرات كبـيرة وهـامـة في منظومات القوانين والعلاقات البشرية، إذ نسف الكثير من العلاقات القبلية البالية وأحل محلها قوانين وعلاقات

حضـاريـة أرقى، ساهمت، وخـلال فترة قصـيرة، في نقـل المجتمـع العـربي من البـداوة إلى المـدنيـة، وفي تحويل العرب من قوم جاهلين متخلفين إلى أمة فيها وفرة من العلماء في مختلف الاختصاصات، وفيها وفرة من المفكرين والفلاسفة والساسة الحاذقين أيضاً، الأمر الذي أتاح للعرب فرصة الصيرورة أساتذة العالم وسادته في وقت قصير بعد ظهور الإسلام. .

من المؤكد أن هذا الخليط من الحقائق والتصورات الإيجابية عن الإسـلام، لم يكن سوى مقـدمة للمقولة الماكرة التي نحن بصددها. . وقـد جعلهـا أصحـاب هذه المقـولـة كمقـدمـة لمقولتهم، ليس بدافع احـترامهم للإسـلام وحبهم له، وإنـما لايهـام المسلمين بموضوعية ما سيطـرحـونـه من آراء ضد الإسلام بعد تلك المقدمة التي أرادوها طعماً لاصطيـاد وعي الإنسان المسلم وتضليله، أي أرادوها نوعاً من الدسم الذي سيخلطون به سمومهم التالية التي يمكن إيجازها بالسطور التالية:

لكن الإسلام الذي مثل تلك الثورة الفكرية الباهرة، يظل مجرد مرحلة من مراحـل تطـور الفكر الإنساني، ومن الخطأ الفادح، حسب قوانـين التطـور، أن يُنْظَرَ للإسلام على أنه المرحلة الأخيرة التي ينبغي على البشـريـة أن تقف عنـدها وتتجمد على نحو يمنعها من الانتقال إلى مراحـل أرقى في التفكـير والابـداع والـرقي. . ذلك أن مثل هذه النظرة التقديسية للإسلام تعني تقوقع الفكر الإنساني وشل طاقاته على

الاستمرار في التطور والابداع . . ولا أدل على صحة هذه الفكرة ـ كما يزعم أصحابها ـ من واقع المسلمين الحالي الذي أوصلهم إليه إصرارهم على اعتبار الإسلام مبدأ ومنهاجاً صالحين لكل زمان ومكان، مهما اختلفت المعطيات وتغيرت الحقائق . . لقد جنى هذا الإصرار على المسلمين كثيراً حتى حولهم إلى تابعين في ركب الحضارة المعاصرة، يعيشون عالة على نتاج تفكير غيرهم من الأمم الأخرى دون أن تكون لهم أي إسهامات تذكر في الحضارة العلمية الحديثة . . .

ويستمر أصحاب هذا الطرح موضحين ما يسمونه الأسباب الحقيقية لتخلف المسلمين الحالي في جميع المجالات بالزعم أن أول هذه الأسباب وأهمها يكمن في تكلس عقل الإنسان المسلم وتفكيره داخل قوقعة التعاليم الإسلامية التي مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً، والتي غدت بفعل قدمها هذا تعاليم رجعية بالية لا تستطيع مواكبة القفزات العلمية الحديثة السريعة والمتلاحقة التي يقفزها عقل الإنسان غير المسلم في أجواء الحضارة العلمية الحديثة . . ومما زاد في تكلس عقل الإنسان المسلم وجمود تفكيره، في العصر الراهن، أن مثاله الأخلاقي والسلوكي والفكري هو شخص النبي محمد (ﷺ) الذي مهما كان عبقرياً، فقد مضى على وفاته أربعة عشر قرناً ونيف، الأمر الذي يجعل بقاءه قدوة، والتزام سيرته وتعاليمه مطمحاً للمسلمين، من أكثر العوامل المساعدة على تخلفهم . . ذلك أن أبصارهم تظل مشدودة إلى الماضي معرضة عن الحاضر والمستقبل وما

يطرحانه من تحديات فكرية وعلمية متجددة على العقل البشري، لا ينفع في حلها المنطق النبوي الذي نفع في التصدي، قبل أربعة عشر قرناً ونيف، لما كان يواجه المجتمع العربي خاصة، والإنساني عامة من تحديات على مختلف المستويات..

وأخيراً، يخلص أصحاب هذه الآراء إلى النتيجة / المحصلة التي خططوا لبلوغها، وهي أن على المسلمين، اليوم، إذا أرادوا تجاوز تخلفهم، واللحاق بركب الحضارة العلمية المعاصرة، والاسهام فيها بما يعيد لهم بعضاً من مكانتهم القديمة، حين كانوا أساتذة العلم والفكر والابداع، فإن أول ما يجب عليهم فعله هو الخروج من قوقعة التعاليم الإسلامية، والتحرر من الالتزام بها، وعدم النظر إليها إلا بوصفها تراثاً ثقافياً وروحياً يليق بهم الابقاء عليه محنطاً في متاحف التفكير البشري التاريخية.. وكذلك تحويل أبصارهم من النظر إلى شخصية الرسول عليه السلام كقدوة، إلى رسل الحضارة العلمية الحديثة واتخاذهم، بأفعالهم ونجاحاتهم كنماذج قدوة جديدة، يقلدونهم فيما يفعلون ويتبعون مناهجهم في التفكير والابداع..

إلى هذا الحد، يمكن القول أن ما يروجه أعداء الإسلام عنه من تهم في هذا المجال، قد تم ايجازه في السطور السابقة.. وقبل أن أحاول الرد عليه وتفنيده، أراني راغباً في أن استغفر الله بما جرى به قلمي في تلك السطور التي لولا حرصي على موضوعية تفنيد مضمونها لاحقاً، ما كنت كتبت منها سطراً واحداً.. كما أحب أن أشير أيضاً

قبل شروعي في الرد على تلك السطور إلى أن ما ورد فيها من اتهامات للإسلام، هو غيض من فيض ما تزخر به بعض الكتابات التي تتزيا بالموضوعية والعلمانية تصنعاً، وكذلك هو غيض من فيض ما يدور في النقاشات الحامية بين مروِّجي هذه التهم وبين من يتصدى لهم من المسلمين، ولكثرة مصادرها آثرت عدم إحالة القارىء إلى مظانها المكتوبة، واكتفيت بإيجازها على نحو ما سبق، آملاً أن يكون إيجازي لها موضحاً لخطوط مضمونها الرئيسة، وكافياً لابلاغ القارىء قدراً من الإلمام بها يساعده على متابعة ردي عليها.. ويكفي دليلاً على الكثرة الهائلة لهذه الكتابات المعادية للإسلام، أن نعرف بأن الغرب الأوروبي والأمريكي في إطار حربه ضد الإسلام قد أصدر بين عامي (١٨٠٠ و ١٩٥٠) فقط ما لا يقل عن ستين ألف كتاب عن الإسلام معظمها يدعو إلى معاداته ويضع الخطط لكيفية تدميره وتدمير أهله[١٣].

وأول ما أبدأ به ردي على تلك المزاعم والتهم، طرح عدد من التساؤلات التي أراها هامة لقدرتها على العمل كمفاتيح للرد، وكمحفزات للفكر تساعد في تحضير هذا الرد..

تساؤلات:

١ ـ هل الإسلام يدعو أتباعه، فعلاً، إلى الاقتصار في طلب

---

(١١٣) ـ (الإسلام والعرب وأعداؤهم ـ الهجمة الامبريالية الصهيونية الجديدة)، مطبوعات أوروبا والعرب، دمشق، تشرين الأول، ١٩٨٩، ص(١١).

العلم على طلب علوم الدين فقط، والإعراض والعزوف عن غيرها من العلوم غير الدينية كالطب والفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم التي تتعامل مع موجودات الكون ومواده، وهل ثمة نص قرآني أو نبوي يؤكد مثل هذا الزعم؟

٢ ـ ألا يوجد تناقض صارخ بين الاعتراف بأن الإسلام وتعاليمه كانا السبب الحقيقي في جعل المسلمين الأوائل أساتذة العلم والتفكير، بعيد ظهوره بفترة قصيرة، وبين الزعم بأن هذه التعاليم نفسها كانت هي السبب في تخلف مسلمي اليوم علمياً وحضارياً؟!!

٣ ـ ما هو موقف الإسلام المعلن، في القرآن الكريم والصحيح من الحديث النبوي الشريف، تجاه مسألة طلب المسلم للعلوم غير الدينية؟

٤ ـ ما هي دوافع أعداء الإسلام لاتهامه بأنه سبب تخلف أتباعه، وكيف نجحوا في ايهام بعض المسلمين بأن هذه التهمة (صحيحة)؟

محاولة الرد:

يصعب على الباحث التصديق بأن الدين الإسلامي الذي أراد الله لأتباعه أن يكونوا ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾، هو نفسه ـ أي الإسلام ـ السبب في ما آل إليه أتباعه اليوم من تخلف حضاري وعلمي، على مختلف الأصعدة. وهذا بدوره يقود إلى صعوبة

الاعتقاد بأن دعوة الإسلام إلى طلب العلم الذي رفعه إلى مرتبة الفريضة على أتباعه، هي دعوة محدودة تقتصر على توجيههم إلى طلب العلوم الدينية، أي إلى التفقه في علوم الشرع دون غيرها من العلوم الأخرى.. ولو حاولنا تلمس الدليل النصي المؤكد للزعم بقصور دعوة الإسلام إلى طلب العلم ومحدوديتها، من خلال الرجوع إلى مصدري التشريع الإسلامي الرئيسيين أي القرآن الكريم والصحيح من الحديث الشريف، لما عثرنا على أي نص في هذين المصدرين يدعو إلى مثل تلك الدعوة.. وحتى حين نتجاوز هذين المصدرين إلى ما يليهما من مأثور كلام أئمة المسلمين وكبار علمائهم، في فترة سيادة الإسلام والمسلمين حضارياً، لأعيانا العثور على قول يحاول تحجيم دعوة الإسلام إلى طلب العلم، بطلب علوم الدين وحدها..

بل إن ثمة تناقض صارخ بين وجود تحجيم كهذا، على افتراض وجوده جدلاً، وبين ذلك الاندفاع المذهل لعلماء المسلمين الأوائل نحو تعلم سائر أنواع العلوم المعروفة في عصرهم، والتفوق والإبداع فيها بعد ذلك، على نحو جعل مؤلفاتهم العلمية المختلفة نواة الحضارة العلمية الراهنة، في عصر النهضة الأوروبية الذي تلا عصور الجهل والظلام التي تعرف بالعصور الوسطى.. فلو كانت دعوة الإسلام إلى طلب العلم محدودة فعلاً بطلب العلوم الدينية، لكان من الصعب على علماء المسلمين الأوائل أن يسمحوا لأنفسهم ـ وهم

الأقـرب إلى عهـد النبـوة والأكثـر إيماناً منّا اليوم ـ بأن يتجاوزوا حدود الدعوة الإسلامية إلى طلب العلم، وأن يظهر بينهم علماء في الكيمياء والفلك والهنـدسـة والجغـرافيـة والطب والفلسفـة وغـير ذلـك من العلوم. . . أكثر من ذلك، إن المأثور عن علماء الإسلام الذين عملوا في هذه العلوم، أنهم كانوا، في ذات الوقت، من أكثر المسلمين علماً في أمـور دينهم وتعـاليمـه، ومن أشدهم التزاماً بهذه التعاليم ومن أكثرهم تقى لله وخشية منه وحرصاً على طاعته. . .

ومـا دامـوا ـ رحمهم الله ـ كذلـك، فإن المنطق السليم يقود إلى الاستنتـاج بأن أولئـك العلماء العظـام كانـوا منـدفعـين متحفزين إلى تحصيـل ألـوان العلوم الأخرى، غير الدينية، بحوافز ودوافع دينية. . أي أنهم كانـوا ينفـذون مطلبـاً إسـلامياً واضحاً وملحاً، لا يبتغون من وراء تنفيـذه كسبـاً ماديـاً أو جاهـاً دنيوياً زائلاً، بل يبتغون رضوان الله وزيـادة التقـرب إليـه بنـوع من العمـل جليل دعاهم إليه ـ سبحانه ـ وأهّلهم للنهـوض به، خدمـة للمجتمـع الإسلامي الذي هم الصفوة بين أفراده، وخدمة للصالح الإنساني العام الذي صاروا رواده آنذاك، وحملة مشعل حضارته ورقيّه وتقدمه. . .

وإذا كان الأمـر على هذا النحـو فعلاً ـ وهو ما يوجد الكثير من الـدلائـل عليـه والـبراهـين المؤيدة له، والتي لا يتسع المجال لعرضها هنـا ـ فإن ثمـة ما يدفـع إلى ضرورة إضـاءة موقف الإسـلام من رغبة المسلمين في طلب العلوم غير الدينية، أي ما يمكن أن يوصف بالعلوم

الطبيعيـة والتطبيقيـة والوضعية، وغيرها مما يشكل اليوم قوام ما يعرف بالعلوم الحديثة. . كما أن ثمة ما يدفع، إلى ضرورة التماس حقيقة هذا المـوقف وأبعـاده وتـوجهـاته من خلال استقراء النص القرآني ونصوص الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة. .

ولأهميـة هذا المـوضـوع، ولكثـرة ما يحيـط به من التباسات نشأ معظمهـا بتأثـير ما رمي به الإسـلام من اتهـامـات تزعم أنه، بتعاليمه ومبـادئـه، كان العـائق الـذي حال بين المسلمـين وبين اللحاق بركب الحضـارة العلميـة الحـديثة، أجدني مضطراً للتوسع، إلى حد ما، في عرض هذا الموضوع ومناقشة تلك الاتهامات، على نحو أكثر تفصيلاً مما سبق. . . هذا، على الرغم من اعترافي بأنني في هذا التوسع، ربما أكـون قد ارتكبت خطأ منهجيـاً، يتمثـل في تضخم الفصـل الثاني من هذه الدراسة، إذا ما قيس حجمه بحجم فصليها الأول والأخير. . .

ورغبــة مني في تجنب مثـل هذا الخطأ المنهجي، على افـتراض صحـة توصيفـه بأنـه خطأ، وقـد لا يكون كذلك، ورغبة مني أيضاً في إتـاحـة مجال أكثـر اتساعاً لعرض الموضوع ومناقشته، تراءى لي أنه ربما يكون من الأفضل أن أفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً، هو في الحقيقة ليس مستقـلاً عن الفصـل الثـاني من ناحيـة المضمـون، بقـدر ما يعدُّ ملحقاً أكثر تفصيلاً لإحدى فقرات ذلك الفصل، والله أسأل السداد.

* * *



الفصل الثالث

موقف الإسلام من العلوم غير الدينية ودوافع اتهامه بأنه ضدها

المحتويات :

١ ـ موقف الإسلام من طلب العلوم غير الدينية .

٢ ـ دوافع أعداء الإسلام من اتهامه بأنه سبب تخلف أتباعه في العلوم غير الدينية ، وكيف نجحوا في إيهام بعض المسلمين بأن هذه التهمة (صحيحة)؟



موقف الإسلام من طلب العلوم غير الدينية

المقصـود بتـوصيف (العلوم غير الـدينيـة) في هذا المجال، كل أنــواع العلوم الأخــرى التي تقــوم عليهــا الحضـارة المعـاصـرة، في الغـرب . . . وليس فقـط العلوم الطبيعيـة التي أثمر تطوير البحث فيها إلى ما نشهـده اليـوم من اخـتراعـات علميـة في شتى المجالات . . . بتعبـير آخـر، المقصود بالتوصيف السابق، إضافة إلى العلوم الطبيعية من فيــزيــاء وكيميـاء وفلك . . . إلى ما هنـالـك من هذا النـوع من العلوم، تلك الطائفة الأخرى من العلوم التي شهدت قفزات تطورية كبـيرة ونـوعية، منذ بداية عصر النهضة الأوروبية، والتي ازداد تطورها خلال القـرن العشـرين زيـادة ملحـوظـة . . وتضم هذه الطـائفة من العلوم مجالات شتى متنوعة، كعلوم الفلسفة والسياسة والاقتصاد، وما يتصـل بها من أيـديـولـوجيـات وضعيـة حديثـة . هذا، إضافة إلى ما شهـدتـه مجالات الأدب والنقـد وعلم الجـمال وغـيرهـا مما يطلق عليـه اصطلاحاً، تعبير العلوم الإنسانية، من تطورات كبيرة . . .

هذا الكم الكبــير المتنــوع من العلوم الحـديثـة، ما هو موقف الإسلام منها، هل هو موقف عداء ودعوة لأصحابه إلى الإعراض عن

طلبهـا، أم العكس هو الصحيـح؟ هذا ما ستحـاول السطـور التـالية إيضـاحـه، انطـلاقـاً، باديء ذي بدء، من استقـراء بعض ما ورد في القـرآن الكـريم والحـديث الشريف، في هذا المجال، وكذلك تأسيساً على بعض ما سبقت الإشارة إليه في الفقرة الثالث من الفصل السابق. . .

* * *

ثمـة ما يدفـع إلى الحـيرة والاستغـراب، فعـلاً، في ما يزعمـه البعض من أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، في العصر الراهن. ومنشأ الحــيرة والاستغـراب من هذا الـزعم، ذلـك الكم الكبـير من النصوص القرآنية والأحاديث الداعيةإلى طلب العلم في الميادين كافة فلا تحديد، في معظم هذه النصوص، لنوعية معينة من العلم، فرض الإسـلام طلبـه على أتبـاعـه دون سواه. . . هذا من جهة، ومن جهة ثانيـة، إذا جازلنـا أن نفسـر بعض النصـوص الإسلامية على أن فيها توجيهـاً إلى طلب نوع معـين من العلوم، فإن ما قد يفـاجيء فعلاً هو كون الإشارة الإسلامية توجهنا إلى طلب العلوم غير الدينية! ولكن، بقـليــل من الـتـمعن والبحث عن السبب، تزول المفــاجأة، في هذا المجال. . . إذ من البدهي أن يوجه الإسلام أتباعه، بصريح النص، إلى طلب العلوم غير الـدينيـة، وذلـك على خلفيـة اعتبـاره أن طلب المسلم لعلوم دينـه، وإحـاطتـه أو إلمـامـه بها، هو أمر مفروغ منه، ولا يحتاج إلى الكثير من الالحاح والتوجيه، لاستحالة اقتدار المسلم على

تأديـة فرائضــه والتـزام حدود شرعـه، ما لم يكن ملماً بكيفية تأدية تلك الفـراض، وعارفاً لتلك الحدود أو أكثرها. . وإذن، فالإشارة الصريحة ينبغي أن توجه إلى العلوم غير الدينية لحث المسلم على طلبها إضافة إلى طلب علوم دينـه التي يدفعـه إلى طلبهـا حرصه على تطبيق شرع الله وتأدية ما فرضه عليه من فرائض. . . ولعل من الضروري إذا أردنا التثبت من صحة هذه الرؤ ية، أن نعود أولاً إلى النص القرآني، نراجع آيـاتـه، ونناقشهـا بعقـل متفتح بعيد عن التعصب، فما عسانا نرى؟

لنتأمل معاً الآيات الكريمة التالية:

﴿والله أخـرجكم من بطـون أمهـاتكم لا تعلمـون شيئـاً﴾[١]، ﴿اقـرأ باسم ربـك الـذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكـرم. الـذي علّم بالـقـلم. علّم الإنـسـان ما لم يعـلـم﴾[٢]، ﴿ويعلمكم ما لم تكـونـوا تعلمـون﴾[٣]، ﴿وأنـزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾[٤]، ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾[٥]، ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[٦]، ﴿قد فصلنـا الآيـات لقـوم يعلمـون﴾[٧]، ﴿سنـريهم آيـاتنـا في الآفاق وفي

(١) ـ سورة النحل، الآية (٧٨).
(٢) ـ سورة العلق، الآيات (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥).
(٣) ـ سورة البقرة، الآية (١٥١).
(٤) ـ سورة النساء، الآية (١١٣).
(٥) ـ سورة العنكبوت، الآية (٤٣).
(٦) ـ سورة الروم، الآية (٢٢).
(٧) ـ سورة الأنعام، الآية (٩٧).

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[8]، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾[9]، ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾[10]، ﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[11]، ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾[12]، ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[13]، ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[14]، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[15]، ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾[16]، ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾[17]، ﴿وقل ربِ زدني علماً﴾[18].

لا شك أن قراءة هذه الآيات بتمعن وتدبر تقودنا إلى عدة

---

(٨) ـ سورة فصلت، الآية (٥٣).
(٩) ـ سورة البقرة، الآية (٢١٩).
(١٠) ـ سورة الروم، الآية (٨).
(١١) ـ سورة الذاريات، الآية (٢١).
(١٢) ـ سورة آل عمران، الآية (١٩١).
(١٣) ـ سورة يس، الآية (٣٦).
(١٤) ـ سورة الزمر، الآية (٩).
(١٥) ـ سورة فاطر، الآية (٢٨).
(١٦) ـ سورة آل عمران، الآية (٧).
(١٧) ـ سورة يوسف، الآية (٧٦).
(١٨) ـ سورة الكهف، الآية (١١٤).

حقائق من أبرزها وأهمها ما يلي :

١ ـ لا نجد في أيٍّ من هذه الآيات دعوة إلى الاقتصار في طلب العلم على العلوم الدينية وحدها . . . فكلمة (علم) الواردة في أكثر هذه الآيات غير محددة الدلالة على علم بعينه دون سواه . . .

٢ ـ هناك طائفة من هذه الآيات تدعو الإنسان بشكل عام إلى التفكير وإعمال العقل في بعض مظاهر الخلق المبثوثة في أرجاء هذا الكون الفسيح ، وذلك بوصفها أدلة هادية للعقل على وجود الله ـ سبحانه ـ وعلى عظيم قدرته . . .

٣ ـ إن الآيات الأربع الأولى تشير إلى أن الله هو المصدر الأول ، أو النبع الرئيس لكل ما وصل إليه الإنسان من علوم ، على هذه الأرض . . . فقد خلقنا ـ سبحانه ـ وأخرجنا من بطون أمهاتنا ونحن لا نعلم شيئاً ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ، وهذه حقيقة لا يختلف عليها اثنان . الأمر الذي يعني أن العلم يُكتسب اكتساباً بعد الولادة ، وأن الإنسان لا يخرج من بطن أمه عالماً بشيء . وبالتالي ، فلكي يصبح عالماً عليه أن يسعى في طلب العلم طالما بقي حياً . .

وبعد أن يوضح ـ سبحانه ـ هذه الحقيقة ، نراه يدعو الإنسان وبشكل صريح وواضح إلى الشروع في طلب العلم ، بتوجيه الأمر إليه قائلاً (اقرأ) . . ولعل من الجدير بالإشارة ، هنا ، أن الآيات الأولى من سورة العلق كانت أول ما نزل به الوحي الأمين على قلب نبينا محمد ،

وهو في غار حراء ـ والقصة معروفة ـ تأمره بأن يقرأ، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب. . . وبالطبع يجيب ﷺ «ما أنا بقارىء»، والله يعلم ذلك، وكذلك جبريل عليه السلام، وبالتالي ربما يجوز تفسير الأمر بالقراءة هنا على أنه أمر بأخذ العلم الموحى به من الله تعالى إلى نبيه المختار ﷺ عن طريق الوحي الذي نزل به جبريل عليه السلام، وذلك ليتم تبليغ هذا الأمر للناس، والله أعلم. . .

ولكن، لما كان القرآن ـ كما هو معروف ـ كتاب أنزله الله للناس كافة، وليس لنبيه عليه السلام فقط، ربما جازلنا تفسير الأمر الإلهي للناس بالقراءة على أنه دعوة مفتوحة لطلب العلم، لأن القراءة قدرة يكتسبها الإنسان بالتعلم، لتصير بعد اكتسابها وسيلته إلى طلب العلم. . فهي ـ كما هو معروف أيضاً ـ أولى درجات التعلم. . . ولعل مما يؤكد هذا الفهم لكلمة (اقرأ) في هذه الآية، ما تضمنته الآيات الواردة بعدها، أي: ﴿اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾.

ففي هذه الآيات تبرز الدعوة الإلهية الموجهة إلى الإنسان تأمره بطلب العلم، واضحة الدلالة، والقرينة التي تؤكدها وتزيد دلالتها وضوحاً هي كلمة (القلم). . فالقلم كان، وما يزال، أهم أدوات التعليم وأكثرها فاعلية في إكساب الإنسان العلم، صغيراً وكبيراً. . ومع أن هذه الحقيقة لم تكن، بهذا الوضوح الذي نلمسه اليوم، فإن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يلفت انتباه الإنسان إلى قيمة القلم ودوره في

بناء الإنسان لحضارته، وذلك في أول آيات أنزلها على نبيه.. ولعل من الاعجاز القرآني حقاً، أن يكلف النبي، وهو أمي ﷺ، بتبليغ هذه الحقيقة للناس، وأن تكون هذه الحقيقة في السطر الأول من مقدمة رسالته السامية.. ونلاحظ في الآية الأخيرة، تأكيداً وإشارة إلى أن مصدر العلم الإنساني كله هو الله سبحانه الذي ﴿علّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾... وهذه حقيقة أيضاً يؤكدها منشؤه المتضع الذي أشارت إليه الآية الثانية من السورة وهي ﴿خلق الإنسان من علق﴾.. فبعد أن خلقه الله من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة على جدار الرحم، ثم سواه بشراً، أكرمه بالقدرة على اكتساب العلم، ليتخذ من هذه القدرة سبيلاً إلى معرفة الكون الذي خرج إليه، وليستدل بهذه المعرفة التي مكنه الله من اكتسابها على وجود خالقه، ومن ثم على طاعته...

من هنا ندرك مدى ما للعلم من أهمية في الإسلام.. فهو أول ما دعا الله عباده إلى طلبه، وذلك قبل أن يدعوهم إلى صلاة أو زكاة أو حج.. إلخ.. كما ندرك وظيفة العلم في حياة المسلم.. فهو ليس حلية يتحلى بها من اكتسبها، وليس مجالاً لتفاخر من ازداد منها اغترافاً، وإنما هي وسيلة إلى معرفة الخالق، معرفة تدفع صاحبها إلى طاعة من عرفه... ولعل مما يؤكد صحة هذا الفهم لوظيفة العلم في الإسلام قوله ﷺ، في الحديث الذي رواه عنه ابن عمر رضي الله عنهما: [من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء

وليصرف وجوه الناس إليه، فهو في النار][19].

ونعود إلى المسألة التي انطلقنا منها، وهي نوعية العلم الذي فرض الإسلام طلبه على أتباعه، لنلاحظ أن القرآن الكريم والحديث الشريف كليهما يشيران إلى أن غاية المسلم من طلب العلم هي معرفة الله، لتكون هذه المعرفة دافعاً له إلى طاعته ـ سبحانه ـ ولكن، كيف تتأتى هذه المعرفة للإنسان، وكيف له أن يكتسبها؟

توجهنا الآيات الكريمة التي سبق ذكرها إلى تلك الكيفية بوضوح... فالإنسان لم يخرج من بطن أمه متعلماً، وإنما خرج إلى هذه الحياة لا يعلم منها أو عنها شيئاً. ولكن، بالعقل الذي وهبه الله له، وبالقدرة على التفكير التي يتمتع بها هذا العقل، يمكن للإنسان، أن يصل إلى المعرفة المنشودة تدريجياً... فالله الذي خلق هذا الكون، جعل كل من خلق وما خلق فيه دالاً على وجوده سبحانه... فآيات خلقه مبثوثة في كل ذرة من هذا الكون، في السماء والأرض، وفي تركيب الإنسان نفسه، في النبات والحيوان... في كل شيء... والله يلفت انتباه عباده إلى هذه الحقيقة، وإلى ضرورة طلبها وتقصيها ليزدادوا إيماناً ويقيناً فيقول: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

إذن، أولى درجات التعرف على الله، هي التعرف على ما

---

(19) ـ رواه ابن ماجة، الحديث (2528)، الجزء (2)، من (كشف الخفاء)، للعجلوني، ص (261).

خلق وبث في هذا الكــون من مخلوقــات . . فكلما ازدادت معـــرفــة الإنسان بهذه المخلوقات واتسعت وازدادت شمولية وعمقاً، كلما ازداد تعـرفـاً إلى الله وقـرباً منه . . ولهذا وجب على الإنسان أن يكون دائم التفكـير في آيـات الله المبثـوثـة في أرجاء الكون، وأن يتخذ من تفكيره فيهـا ومـا أوصله عقله من معـرفة بها، معارج إلى معرفة أكبر بربه . . ولـذا حصن القـرآن الكـريم المسلم، بل الإنسـان عمـومـاً على دوام التفكير والبحث في آيات الله المبثوثة في مخلوقاته كافة دون تحديد . . . ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾، ﴿أولم يتفكروا في أنـفسهم﴾، ﴿وفي الأرض آيــات للمــوقنــين، وفي أنفسكم أفــلا تبصــرون﴾، ﴿الـذين يذكـرون الله قيـامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ . .

فالله خلق ما خلق، وجعله بَيِّناً، ثم زود الإنسان بوسائل المعرفة من عقل وسمع وبصر وحس وغير ذلك، ثم دعاه إلى استخدام هذه الــوسـائـل وتـوظيفهـا في اكتشـاف خلق الله من حولـه . . . ويعجب سبحـانـه ممن ينكـر وجـوده كيف لا ينظر إلى نفسه على الأقل قبل أن ينـكــر . . ﴿أولم يتـفـكــروا في أنــفـسهم﴾، ﴿وفي أنفسكم أفــلا تبصـرون﴾ . . إذن هي دعـوة إلى البحث في تركيب الإنسـان وبنيتـه نفسهـا . . بنيتـه الفيـزيـولـوجيـة، والنفسيـة، والعقلية، وسائر البنى الأخـرى التي يتكـون منها كإنسان، كمخلوق شديد التعقيد في تركيبه المــذهــل البـالـغ الـدقـة . . . إن المتخصصـين في علوم الطب على

اختلافها يدركون المعنى العميق لهذه الدعوة الإلهية، ويدركون ـ أكثر من غيرهم ـ أن هذا المخلوق نفسه هو أحد الأدلة الباهرة الواضحة على إعجاز الله في الخلق . .

وللإنسان أن ينطلق من هذه المعجزة المتجسدة في تكوينه هو نفسه، ليبحث في غيرها من معجزات خلق الله . . . وهي معجزات لا تعد ولا تحصى، يمكن للإنسان أن يتلمسها في هذا الكون، كيفما اتجه وأنى سار أو اختار البحث . . . في الأرض وما عليها من نبات وحيوان وجماد، أو في السماء وما حوت من كواكب وأجرام، أو في البحر وما اشتمل عليه من عجيب خلق الله وبديعه . . . وله بعد أن يتعمق في أي من هذه العلوم، له الحرية، كامل الحرية في أن يؤمن أو يكفر، ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[٢٠]، ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٢١].

إنها الحرية الكاملة، يمنحها الله للإنسان في مجال الإيمان به . . فهو لا يجبره على ذلك الإيمان، ولا يدعوه إليه قبل أن يعمل تفكيره . . ولا شك أن هذه الدعوة إلى العلم هي من أرقى الدعوات في أسلوبها ومنهجها . . فالله لا يدعو الإنسان إلى الإيمان به إيماناً أعمى، وإنما يدعوه إلى البحث أولاً، وإلى أن يبدأ بحثه دون تقيد بقناعات أو معطيات سابقة تكبل حريته أثناء البحث، وتدفعه إلى

---

(٢٠) ـ سورة الكهف، الآية (٢٩).
(٢١) ـ سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

مصـــارعـة الحقـائق ليلوي عنقهـا بحيث تنسجم مع ما يعتقـد به من قنـاعـات مسبقـة قد تكـون خاطئة. . . إنه يدعوه إلى البحث بحرية كاملة وهـذا أرقى أنـواع البحث المعـروفـة اليـوم. . . وبعد أن يوصله بحثه الحر إلى ما يوصله من حقائق، له أيضاً حرية الاختيار مرة ثانية، في أن يؤمن أو أن يكفر، لأنه على أساس هذا الاختيار سيحاسب يوم القيامة. . فسبحان الله ما أكرمه وما أعدله. . .

إذن الـدعـوة إلى طلب العلوم الطبيعيـة موجودة في أعظم كتب الـدين وأقـدسهـا، وهو القرآن. . وهي ليست موجهة للإنسان المسلم من أجل دفعه إلى السيطرة على هذا الكون فحسب، بكل ما فيه إن أمكنـه، وإنـما قبـل ذلـك وبعـده، من أجل زيادة المعرفة بالله، لزيادة طاعـة الإنسـان له، لأن العلماء هم من أكثـر العبـاد خشية لله، كونهم الأكثـر معـرفـة به. . ﴿إنـما يخشى اللّهَ من عبـاده العلماء﴾. ولكن ما الفرق بين المسلم وغير المسلم في طلب هذه العلوم؟

أفضـل أن أتـرك للدكتـور محمـد سعيد رمضان البوطي الإجابة عن هذا السؤال، لاعتقـادي بأن ما أجـاب به، أكثـر وضـوحـاً ودقـة وشمـوليـة، مما يمكن أن أجيب به، لو فعلت. وسأورد معظم إجابته، لأهميتها، وذلك على الرغم من طولها. يقول الدكتور البوطي:

«لقـــد شاءت إرادة الخـالق جلّ جلالـه أن يضـع صفحـة هذا الكون أمامنا للنظر والاعتبار، ولقد شاء أن لا يحجب شيئاً من حقائقه عنّا إلا بحجاب الجهل، وأن لا تكون ثمة وسيلة بيد الإنسان لازاحة

هذا الحجاب إلا وسيلة العقل، وأن تكون هبة العقل شاملة لكل أفراد الناس، بقدر نفس الشمول المتعلق بتكليفهم بمعرفة الخالق.

فكل من استعمل عقله للنظر والتأمل والبحث، كان حرياً به أن يطلع على دقائق الكون ويكتشف أعاجيبه، ملحداً كان أم مؤمناً..

ولكن الفرق بين المؤمن والكافر إنما يتشعب من وراء ذلك. أي أن كليهما يستطيع أن يخوض بعقله في مجاهل الكون ويكتشف منه حقيقة إثر أخرى، إلا أن الكافر يظل بعد ذلك يخوض ويبحث دون أن ينتبه إلى أنه يقف من سائر علومه التي وصل إليها أمام دليل عظيم على حقيقة ذات أهمية قصوى أو هو قد ينتبه إلى ذلك ولكنه يقف عند حد العلم بأن لهذا الكون العجيب مكوناً عظيماً. ثم يمضي دون أن يلوي على شيء ودون أن يتساءل عن هوية نفسه ومسؤوليتها تجاه هذا الكون العظيم الذي آمن به. أما المؤمن فإنه يجتاز حدود الدائرة التي وصل إليها مع زميله ويسير من وراء ذلك أشواطاً أخرى، إنه يتساءل مع نفسه: لقد مررت في سياحتي الفكرية والعلمية هذه بظواهر وحقائق كثيرة في غمار هذا الوجود، لكل منها وظيفة دقيقة قد عكف عليها لا ينحرف عنها ولا يتجاوزها ولا يستأخر عنها... فما هي وظيفتي أنا أيها الإنسان؟!.. أم عساني أن أكون أنا الوحيد في هذه الخليقة لا شأن ولا وظيفة له؟... أفيعقل ذلك أو يتصور؟..

ويمضي المؤمن في تأمله: إذاً لا بد لي أنا الآخر من وظيفة، ولا

بد أنها أخطر الوظائف الكونية كلها، تماماً كمقدار خطورة الإنسان بالنسبة لسائر المكونات الأخرى. ولكن ما هي تلك الوظيفة ومن أين لي أن أعلمها أو أتبينها؟

وهنا يصيخ بسمعه إلى الدهر، فيتبين من خلاله صوت الرسل والأنبياء ويسمع خطاب الله تعالى إلى الصفوة المختارة من خلقه، وعندئذ يعلم أنه إنما خلق ليقيم نفسه على سلوك يجعله مظهراً لألوهية الله في الأرض، ويجد نفسه أمام منهج كامل لهذا السلوك، فإذا علم هذا أدرك أنه أمام أخطر الاكتشافات التي مر بها كلها، وألقى عصاه هناك ليشمر عن ساعد الجد في أداء مهمته والقيام بوظيفته والتزام منهج الله في عمارة الأرض وسياستها.

وإذاً فليست الاكتشافات العلمية وقفاً على المؤمنين، بل هي سبيل ميسور للمؤمنين والكافرين على السواء، وفرق ما بينهم هو هذا الذي ذكرناه فقط، وهو فرق يأتي من وراء هذه المكاسب كلها. اللهم إلا أن المؤمن عندما يكتشف وظيفته في الكون ويهتدي إلى المنهج الإلهي الذي اختطه له على هذه الأرض، لا يستطيع أن يتصرف إلا ضمن سلطان هذا المنهج نفسه لا ينحرف عنه يمنة ولا يسرة...»[٢٢].

---

(٢٢) ـ (من الفكر والقلب ـ فصول من النقد في العلوم والاجتماع والآداب)، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٧٢، ص (٢٠، ٢١، ٢٢).

إن أول ما نخرج به من كلام الدكتور البوطي ، آنف الذكر، أن العلم واكتشاف هذا الكون بما فيه ومن فيه هما امكانيتان متاحتان للمؤمن والكافر على حد سواء، والفرق الرئيسي بينهما في هذا المضمار هو فرق الدافع والهدف من السعي إلى طلب هذا النوع من العلوم، وكذلك هو فرق في توظيف كل منهما لنتائج علمه بعد الوصول إليها . . فالكافر يوظفها لبلوغ غايات دنيوية نفعية ، إن على المستوى الشخصي أو على مستوى الجماعة التي هو منها، وربما وظفها لتحقيق أهداف شريرة ولنيل أطماع غير شريفة، في حين أن المؤمن، ملتزم بشرع الله وخوفه منه ، لا يملك إلا أن يوظف ما وصل إليه علمه وبحثه من نتائج في خدمة مجتمعه المسلم أولاً ، والمجتمع الإنساني كله من ورائه، وغايته الرئيسية في ذلك كله هو التقرب إلى الله أكثر والسعي لنيل لرضوانه ومحبته . .

ولكن، أليس إلى جانب الرغبة في تقرب العالم المسلم إلى الله ، من غاية أخرى، تدفعه إلى طلب العلوم الطبيعية والتبحر فيها؟ وهل ثمة علاقة بين هذه الغاية الأخرى، وبين حض الإسلام على طلب العلوم الطبيعية إلى درجة جعلها فرض كفاية(٢٣) على المجتمع المسلم؟

---

(٢٣) - (مختصر منهاج القاصدين)، الإمام الشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي ، مكتبة دار البيان ومؤسسة علوم القرآن، دمشق - بيروت ، ١٩٧٨، ص (١٦).

بلى، وهي غاية على درجة كبيرة جداً من الأهمية في نظر الشرع الإسلامي، كما سنتبين. . . فالله ـ جلّ جلاله ـ لم يرسل حبيبه ونبيه المصطفى ﷺ برسالة الإسلام، ليجعل من أتباع هذه الرسالة أمة متخلفة مستضعفة بين الأمم، وإنما على العكس، أرسله ـ جلّ شأنه ـ ليجعل ممن اتبع رسالته ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾[٢٤]، على مختلف المستويات، وفي ميادين الحياة كافة. . ولكي يمكنهم من تحقيق هذا الهدف السامي والعظيم، نراه ـ سبحانه ـ قد وجههم وحضهم على التوسل بكل الوسائل التي توصلهم إلى ذلك الهدف، ما دامت هذه الوسائل ضمن إطار الشرع الحنيف، ولا أذية في اصطناعها لأحد من الخلق. . ومن بين أبرز هذه الوسائل وأهمها، كان السعي إلى طلب العلم في مختلف المجالات الدينية وغير الدينية. . ذلك أن الأمة المتقدمة علمياً على غيرها، لا بدّ أن تغدو سيدة بين تلك الأمم ورائدة لها ومصدر إشعاع للقيم والمبادىء من جهة، كما لا بدّ أن تغدو أمة قوية مرهوبة الجانب لا يجرؤ أعداؤها على النيل منها أو على إذلالها واستعبادها من جهة أخرى.

إذن، لا يمكن للمسلمين أن يصيروا خير أمة أخرجت للناس إلا إذا تفوقوا على سائر الأمم في اتجاهين، وفي آن واحد معاً. الاتجاه الأول هو التفوق القيمي الأخلاقي، بمعنى أن يكونوا مثالاً يحتذى في

---

(٢٤) ـ سورة آل عمران، الآية (١١٠).

معاملاتهم وفي سلوكياتهم وما يتمسكون به ويدعون إليه من قيم رفيعة وأخلاق سامية، أما الاتجاه الثاني، فيتمثل بتفوقهم في امتلاك أسباب القوة، بمختلف أنواعها وأشكالها. . . القوة الاقتصادية والسياسية والفكرية والعسكرية والعلمية، وهذا يعني أن يطوروا، وباستمرار، معارفهم وعلومهم في شتى المجالات الآنف ذكرها. .

يقول ﷺ: [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف](٢٥). وبالتأكيد لا يقصد عليه السلام ذلك المفهوم الضيق للقوة، بل يقصد القوة بكل جوانبها وأشكالها. . القوة في البدن والروح والإرادة والعقل والعلم. .

ولعلمه، جل شأنه، أن أمة الإسلام لا بد أن تكون مستهدفة من أعداء كثر سوف يتظاهرون عليها ويكيدون لها ويحاولون تفتيتها وإنهاكها ما أمكنهم، نراه يدعو المسلمين في محكم تنزيله قائلاً: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾(٢٦). ولما كان اكتساب العلم والتفوق به من أهم الوسائل لبلوغ تلك الدرجة من القوة التي يطالبنا الله بإعدادها، فقد وجب على المسلمين في كل عصر وكل مكان أن لا يسمحوا لغيرهم من الأمم بالتفوق عليهم في أي ميدان من ميادين العلم، لكي لا يصيروا

---

(٢٥) - عن أبي هريرة، رواه مسلم، الحديث (١٠١)، في (رياض الصالحين)، للنووي، ص (٣٢).

(٢٦) - سورة الأنفال، الآية (٦٠).

عرضة لعدوان أعدائهم، ومحطاً لأطماع أولئك الأعداء. . .

لهذا كله، كان طلب العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم غير الدينية فرض كفاية في الإسلام، إن خلا مجتمعهم من عالم في أحدها وقع الذنب على الجميع، أما إن قام به أحدهم، فقد سقط الفرض عن الباقين. . ولا يعني هذا أن يكون ذاك العالم، في أي من تلك العلوم، ملماً أو عارفاً فقط بذلك العلم، وإنما ينبغي أن يكون متفوقاً فيه ومصدر غيره من العلماء غير المسلمين في شؤونه ومسائله. . وإذا احتاج أي علم من العلوم الطبيعية وغيرها إلى تخصص أكثر من عالم مسلم فيه لضمان تفوق المسلمين في هذا العلم على غيرهم، فقد وجب على المجتمع المسلم أن يوفر ذلك القدر الكافي من العلماء، وأن لا يقتصر على عالم واحد. . لكي تظل شوكة الإسلام قوية، بل هي الأقوى، في هذه الأرض، ولكي يظل المسلمون هم الأعز بين الأمم. . ولما كان على المسلمين واجب الصيرورة أعز أمم الأرض وأقواها، والاستمرار كذلك في كل الأزمنة حتى يوم القيامة، ولما كان العلم أحد أهم وسائل تحقيقهم لهذا الهدف، فقد وجب عليهم السعي في طلبه بمختلف أنواعه، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب في الإسلام، كما هو معروف.

وإذن، نستخلص من كل ما سبق أن سبب تأخر المسلمين، اليوم، عن ركب الحضارة العلمية المعاصرة، ليس ممانعة الإسلام ومدافعته لأتباعه لصدهم عن الأخذ بما تزخر به هذه الحضارة من علوم

شتى، وعن التفـوق فيـه، وإنما السبب في ذلك كامن في ابتعادهم عن دينهم وتعـاليمـه التي تحضهم على أن يكـونوا نقيض ما هم عليه اليوم من تخلف وتأخر وتردٍ في جميع المجالات. . . بل هم، إذا أردنا الحق، آثمون - بمعنى من المعاني - لتأخرهم فيما برع فيه غيرهم وتفوق. . . وسيظـل هذا الإثم يطـاردهم جيـلاً بعد جيل حتى يتجاوزوا وضعهم المتخلف ويعودوا إلى ريادة أمم الأرض في شتى المجالات، وذلك كما كان سلفهم الصـالـح، رضي الله عنهم، الذين ارتفعوا بالإسلام إلى أعلى درجات التفوق العلمي، وصاروا منارة الأمم، وعزوا بالإسلام وبـما أوصلهم إليـه التـزامهم بتعـاليمـه حتى كانـوا أعـز أمم الأرض وأقـواهـا، يرهب الجميع صولتهم وغضبتهم، ولا يرهبون، رضي الله عنهم، في الله أحداً. بمعنى أنهم حققوا، وإلى حد كبير، ما أراده الله لهم من عزة وقـوة ومكـانـة مرموقة، أي كانوا، في عصرهم، ﴿خير أمة أخـرجت للنـاس﴾. وفي هذا، يقـول الدكتور أحمد بدر، في دراسة له بعنوان: «من التراث التقني للحضارة العربية الإسلامية»:

«بلغت الـدولـة العـربيـة الإسلامية أقصى حدود اتساعها منذ القـرن الأول للهجـرة، عنـدما ضمت بلاداً تمتد من الصين شرقاً إلى الأطلسي غربـاً ومن الصحـراء الكبر ى في إفريقيا وبحر العرب جنوباً إلى ضفـاف بحـر قزوين والأسود وجزر البحر الأبيض المتوسط شمالاً. وفي هذه البقاع الواسعة من سطح الأرض عاشت أقوام شتى وأجناس متعددة ولكل منها منجزاته الحضارية وتقاليده الثقافية، وورث العرب

المسلمون كل ذلك ليتطور في ظل سلطانهم نحو التوحيد في كل واحد منسجم وخاصة في الخطوط الرئيسية بدافع من ضرورة الانسجام مع روح الدين الحنيف، إضافة لما تفرضه طبيعة الحياة في ظل دولة واحدة من احتكاك وتمازج يؤدي آخر الأمر إلى إبقاء العناصر الأكثر ملاءمة والأقرب إلى تحقيق حاجات المجتمع ومتطلباته. ومن ناحية ثانية، لم يقتصر التطور على التوحيد فقط، بل رافقه واستمر بعد تحقيقه تقدم وصعود على معارج الرقي.... إضافة لاستدعاء ودفع كل خطوة متقدمة على درب الرقي والتمدن لخطوة أو خطوات أخرى إلى الأمام»[٢٧].

وهكذا يتضح لنا أن سلفنا الصالح استطاعوا انطلاقاً من مبادىء الإسلام، ومن الالتزام بتعاليمه أن يصيروا القوة العظمى في عصرهم، فكانوا الأقوى عسكرياً، والأكثر تفوقاً من الناحية العلمية... ولا شك أن صيرورتهم، بالإسلام، على ذلك الشكل، هي التي دفعت أعداءهم من أهل الشرك والكفر إلى السعي الدؤوب والدائم لحرفهم عن دينهم، مصدر قوتهم وعزهم وتفوقهم، واستمر الكيد لهم قروناً متوالية، وشنّت عليهم غارات مهولة، كان من أبرزها ما يعرف في التاريخ بالحروب الصليبية... لكنهم لم يتراجعوا عن

---

(٢٧) ـ (من التراث التقني للحضارة العربية الإسلامية)، د. أحمد بدر، مقال منشور في مجلة المعرفة السورية، العدد (٢٣٤)، السنة (٢٠)، آب ١٩٨١، ص (٣٠ ـ ٣١).

التمسك بمبادىء دينهم، وبذلك استطاعوا أن يهزموا أعداءهم، وأن يطردوهم خارج ديارهم . . .

وبالطبع، لم يتوقف كيد أولئك الأعداء بعد هزيمتهم، بل اشتد أكثر وصار حافزاً لأولئك الأعداء الذين كانوا يغطون في جهل عميم إلى طلب العلم ليتفوقوا على المسلمين . . وهكذا، عملوا باتجاهين في آن واحد، اتجاه السعي إلى التفوق العلمي، واتجاه الاستمرار في الكيد للمسلمين ودينهم . . . ولأسباب كثيرة لا مجال للخوض والتوسع فيها هنا، نجح أولئك الأعداء ـ للأسف ـ في دق العديد من الأسافين بين المسلمين والإسلام . . . ومع بداية ابتعاد المسلمين عن دينهم، واستمرار تفريطهم بتعاليمه ومناهجه، آلوا إلى ما هم عليه اليوم من تخلف واستضعاف . . فلم يعد يهابهم أحد، وتمزقت بلادهم شر ممزق، وتحولت سيوفهم إلى صدورهم، يضربون بعضهم بعضاً، وصاروا الأدنى في سلم التطور الحضاري والعلمي، يعيشون عالة على مائدة أعدائهم العلمية، يشحذون منهم المعرفة ويخفضون لهم جناح الذل من الجهل . . . ولا شك أن وضع المسلمين سيزداد تردياً وانحداراً، كلما أوغلوا بعيداً عن دينهم، ولا شك أن أعداءهم سيزدادون لهم احتقاراً وإذلالاً طالما بقوا متأخرين ضعفاء . . . بل إن أولئك الأعداء ـ كما سنرى لاحقاً ـ لن يكفوا عن الكيد للإسلام والمسلمين، وعن إنزال الكوارث بهم، حتى يصدوهم عن الإسلام تماماً، ويوصلوهم إلى مرحلة الطلاق النهائي مع

الإسلام، وبوصول المسلمين إلى هذه المرحلة ـ لا سمح الله ـ ستكون نهايتهم الحتمية المؤلمة، إذ سيكونون عندها تلك اللقمة السائغة هم وبلادهم وثرواتهم في حلوق أعدائهم. . . وربما، وهذا ما يحلم به أولئك الأعداء، تحول المسلمون ـ لا قدّر الله ـ إلى عبيد في السلم الاجتماعي للحضارة العلمية الحديثة، يخدمون أسيادها المتفوقين عليهم، ويذلون لهم. .

وبعد، فإن الخوف من هذا المصير المحتمل للمسلمين إن لم يستفيقوا من غفلتهم، اليوم قبل الغد، يدفعنا للقول متأكدين. إن أولئك الأعداء هم الذين زعموا أن الإسلام سبب تخلف أتباعه، وهم الذين بذلوا الجهود الجبارة، قرناً بعد قرن، لادخال هذا الوهم في عقول المسلمين، حتى انخدع به أكثرهم وصدقه، فترك الإسلام وراء ظهره، واندفع إلى أعدائه يريد أن يتزيا بهم ويقلدهم، ولأنهم ماكرون، ويعرفون نتائج ما خططوا له، لم يقدموا لذلك المتخلي عن دينه سوى فتات موائدهم العلمية، ثم سلحوه بوهم آخر، وَهْم أنه صار عالماً مثل علمائهم، ثم أعادوه إلى قومه لينشر بينهم قيم الأعداء المضادة للإسلام، معلناً، عن قصد أو غير قصد، أن نجاح المسلمين في طلاق اسلامهم هو الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من اللحاق بركب الحضارة المعاصرة. . وكم أغوت هذه الدعوة الباطلة من شباب المسلمين، وكم أهلكت من قيمهم، حتى صاروا إلى ما هم عليه الآن، خسروا إسلامهم وقيمهم ونفوسهم، ولم يربحوا من أعدائهم

سوى نظـرات الاحتقـار والاستصغار، وبطش اللؤم العسكري ببلاد المسلمـين وأهلهـا، وهـو ما لا يحتـاج إلى دليـل أو برهان، لكونه صار واضحاً حتى لقصار البصر وضعاف البصيرة. . .

إن مجمـل ما سبق، يقـودني إلى محاولـة الإجـابـة عن السؤال الأخير الذي طرحته، في الفصل الثاني، تحت عنوان (تساؤلات)، وهو:

ما هي دوافع أعداء الإسلام لاتهامه بأنه سبب تخلف أتباعه، في العلوم غير الدينية، وكيف نجحوا في إيهام بعض المسلمين بأن هذه التهمة (صحيحة)؟

ربما لم يعد سراً اليوم أن الصراع الشرس الذي خاضه أعداء الإسلام ضده منذ حمل المسلمون الأوائل لواءه وخرجوا به من جزيرتهم العربية مبشرين ودعاة وفاتحين، لم يعد سراً أن هذا الصراع الذي اتخذ تسميات تمويهية عديدة لاخفاء الأحقاد المحركة له، ما يزال مستمراً إلى اليوم، وعلى نفس الدرجة من الشراسة إن لم يكن أكثر مما كان عليه قبلاً... ولا تستطيع تلك التسميات البرّاقة التي صيغت له بعناية فائقة لتمويه حقيقته العدوانية، أن تخدع المسلم الواعي عن تلك الحقيقة البغيضة... فبالتأكيد ليس هو صراعاً حضارياً بين الشرق والغرب، وليس صراعاً بين مبادىء وقيم مختلفة فقط، أو بين مصالح متناقضة فحسب، وإنما هو بالإضافة إلى هذا وذاك كله صراع ذو طابع ديني بالدرجة الأولى. يعرف هذا محركو ذلك الصراع كما يعرفه الواعون من المسلمين في كل أرجاء الأرض... ولكن لماذا كل هذا العداء للإسلام وأهله؟

حين خرج المسلمون داعين إلى دين الله، لا يطلبون لقاء

دعوتهم تلك عرضاً من الدنيا رخيصاً، أو متاعاً فانياً من متاعها، كان العـالم آنـذاك مكبـل بقوانين الظلم والاستغلال والاستبداد. . . ظلم القـوي للضعيف، واستغـلال الغني للفقير، واستبداد أصحاب المال والجاه والسلطة بمن هم دونهم. . . وكان الجهل مطبقاً على العقول، وكـانت الحـريات الفردية والاجتماعية مصادرة تحت مختلف الذرائع. . وجاء الإسلام لا ليطرح صراعاً تقليدياً مما كان شائعاً آنذاك من أنماط الصـراع بين القـوى الغـاشمـة الظالمة نفسها، بهدف تحقيق المزيد من الأطماع، بل جاء رسالة حق وخير لكل الناس، جاء رسالة تغيير لكل ما هو سائـد من قيم ومبـادىء وتقـاليـد ظالمـة، جاء ليعيد الحقوق إلى نصـابهـا، لا ليسلبهـا ويعطيهـا لأتبـاعه غنائم حرب كما كان متبعاً في حينه. . ولم تكن له غايات وأهداف دنيوية تمكن طغاة تلك العهود من مسـاومتـه عليها، بل كان أصحابه يسعون إلى غايات إنسانية نبيلة لا تقبل أي لون من ألوان المساومة أو الرشوة بمتاع الدنيا، كانوا دعاة حق وطلّاب رضى من الله، قد باعوا عرض الدنيا الرخيص واشتروا ثواب الله ونعيم آخرته الأبدي. . وهذا ما ساعدهم على اقناع المستضعفين من الأمم الأخرى، إذ لم يجدوا فيهم سيداً مستبداً جديداً يريد أن يحل محل أسيادهم القدامى، ولا فرق بينه وبينهم إلا أنه أجنبي عنهم، بل وجدوا في المسلمين الفاتحين مخلصين لهم من نير العبودية والجهل الذي وضعـه أسيـادهم القـدامى في رقـابهم، وساموهم به ذلاً ورهقاً لقرون طويلة، ولهذا سرعان ما انتشر الإسلام بين مستضعفي الأمم الأخرى

كانتشار النار في الهشيم، فإذا به يزلزل عروشاً عمرها مئات السنين ويقوض أخرى، ويقلب الأمور الظالمة رأساً على عقب

وهكذا، ولدت بذرة العداوة، العداوة ضد هذا الدين وضد من حمله إلى المستضعفين في الأرض.. وفي حينه، وكما هو معروف، تكتلت أوروبا كلها في كتلة واحدة، ورصت صفوفها، وتناسى ملوكها ما بينهم من خلافات، ليقفوا بشكل موحد وقوي في وجه ذلك القادم المحرر من الشرق والذي يسمى الإسلام... وكانت المعركة الفاصلة، آنذاك، معركة بلاط الشهداء المعروفة، على حدود فرنسا...

بعدها، بدأ الكيد الغربي للإسلام والمسلمين يطبخ على نار هادئة حيناً، عبر الدس وتحريك الفتن والقلاقل ونشر الفساد في مجتمع المسلمين، وعلى نار حامية حيناً آخر، بتجييش الجيوش الجرارة وتحريكها إلى بلاد المسلمين لدك حصونهم وتقويض حضارتهم... ولأنه من المستحيل أن ينتصر الجهل في أي معركة يخوضها مع العلم والوعي، تتالت الهزائم على الأوروبيين وغيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين، ولكن لم ينهزم كيدهم ولم تنطفىء نار رغبتهم في الثأر...

كما أدركوا أنهم لن ينتصروا على المسلمين الأكثر علماً وحضارة وتطوراً آنذاك، إلا إذا جاروهم ونجحوا في الخروج من دائرة جهلهم وتخلفهم... وهكذا ظلّت الأحقاد المتأججة تحرق الصدور والقلوب

تحت الرماد، حتى نجحت أوروبا في تحقيق نهضتها العلمية. . وحين قويت شوكتها من جديد عادت إلى ضرب العالم الإسلامي ثانية، وفي هذه المرة نجحت في هزيمته وتقويض دعائم سلطانه السياسي، لكنها ظلّت عاجزة عن تقويض سلطانه الروحي، فبدأت القيام بما صار يعرف اليوم بمصطلح (الغزو الثقافي) المدروس والمبرمج بعناية فائقة لعقول المسلمين وعقيدتهم وضمائرهم. .

من المؤكد أن ثمة من سيعترض على ما ذُكر سابقاً، وسيصفه بالمبالغة والمغالطة والادعاء. . . وقد يقول آخرون، إن هذا الكلام يمسخ الصراع الحضاري بين الشرق المتخلف والغرب المتقدم، ليجعل منه صراعاً دينياً فحسب، وليس هو كذلك. . وقد يقول فريق ثالث، إن الإسلام ليس وحده السبب في حركة الاستعمار الأوروبي الحديث واتساعها، وهو ليس سبباً لظهور هذه الحركة على الاطلاق، وإنما السبب هو الصراع الطبقي الذي امتد في بدايته التي استلم البورجوازيون والرأسماليون زمامها ليصير استعماراً للدول الأضعف. . .

نعم، ربما تكون وجهات النظر هذه صحيحة في بعض جوانبها، ولكنها مخطئة في جميع الجوانب الأخرى. . فلا شك أن الصراع بين الشرق المسلم والغرب غير المسلم هو صراع حضاري في بعض وجوهه ومستوياته، ولكنه أبداً لم يكن صراعاً حضارياً نظيفاً، بل كان الحقد محركه ضد الإسلام والمسلمين، والرغبة في تحويل

المجتمع الإسلامي إلى نقيض ما يتمسك به من قيم ومبادىء جعلته مجتمعاً قوياً، وذلك لاضعافه . . وقد أنبأ الله المسلمين بذلك في محكم تنزيله حين قال جلّ جلاله : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾(٢٨) أي حتى تتحول عن مبادىء الإسلام وتعاليمه إلى ما زيّفوه وزعموه على لسان أنبيائهم بعد أن حرّفوا كتبهم المقدسة (الانجيل والتوراة) التي أنزلها الله على عيسى وموسى، عليهما السلام .

أما أن الصراع هو صراع التقدم والحضارة ضد التخلف، فهذا باطل، لأن من سعى إلى تخلف المسلمين هم أعداؤ هم، بعد أن أدخلوا الشرق المسلم، وعلى مدار قرون طويلة، في سلسلة لا تنتهي من الحروب الخارجية والفتن الداخلية وحرموه بذلك من استكمال بناء حضارته، ومن المزيد من التقدم والتطور. . .

وبعد، فلا أريد أن أستغرق في الجدل مع من يمكن أن يعترض على كون الإسلام هو سبب عداوة الغرب للشرق، أكثر مما فعلت، وأكتفي في هذا المقام بمناشدة أولئك المعترضين، ضاماً صوتي إلى صوت الدكتور البوطي، قائلاً لهم :

«سلوا عنّا أولئك الذين ظلّ الحقد على إسلامنا يفري قلوبهم . سلوا كلمات تشرشل ومذكّرات اللورد لويد واعترافات لورانس : هل

---

(٢٨) ـ سورة البقرة، الآية (١٢٠) .

حسب العدو حساب أي قوة لهذه الأمة إلا في إسلامها؟ هل اجتمعت كلمة الخصوم المتدابرين على شيء كما اجتمعت على الكيد للإسلام والعمل على شل حركته وإنهاك قوته؟»[٢٩].

وإذا أراد هؤلاء المعترضون أن آتيهم بما يؤكد ما ذهبت إليه على نحو أقوى، فإنني أحيلهم إلى ما كتبه أحد الغربيين الذين مَنَّ الله عليهم بالتحرر من إسار الحقد على الإسلام، وصيره شاهداً يشهد على قومه وهو (موريس بوكاي) الذي أوصلته دراساته للإسلام، وللقرآن تحديداً، إلى أن القرآن هو الكتاب الديني الوحيد الذي لا يتعارض ما فيه مع أيٍّ مما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات، في شتّى المجالات. . يقول بوكاي في مفتتح حديثه عن القرآن وإعجازه العلمي المدهش والمثير:

«إذا أردنا اليوم أن نُقَدِّم لأية مواجهة بين الإسلام والمعارف فإنه يبدو لنا ضرورياً ولازماً أن نقدم عن الإسلام لمحة عامة، ذلك الإسلام طالما أسيء فهمه في بلادنا. . . . .

إن الأحكام المغلوطة تماماً التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه العامد حيناً آخر. ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التي تخصّ الأمور الفعلية، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن أن نغفر لتقديم الوقائع

---

(٢٩) ـ (من الفكر والقلب)، مصدر سبق ذكره، ص (٢٧).

بشكل ينافي الحقيقة بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ في أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة. . . »[٣٠].

ويسخر بوكاي في موضع آخر من مفتتح حديثه عن القرآن، بموقف الغربي المادي الجاهل للإسلام من هذا الدين وأهله، فيقول: «وإذا ما حدّثوه عن الإسلام فإنه يبتسم بغرور لا يماثله إلا جهله بالموضوع. وكمعظم المثقفين الغربيين، أياً كانت معتقداتهم الدينية، فإنه يملك عن الإسلام كماً هائلاً من الأفكار الخاطئة»[٣١].

ثم يضيف بوكاي موضحاً أسباب وجود تلك الأفكار الخاطئة وبواعثها في العقل الأوروبي، قائلاً: «كان الإسلام في بلادنا ومنذ عهد طويل موضوع ما يسمى بالتشهير الأزلي. إن أي غربي قد امتلك معرفة عميقة للإسلام يعرف إلى أي حد شُوِّه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه»[٣٢].

ولا يخفي بوكاي، في النهاية، أن العداء للإسلام في أوروبا، وذلك الحقد الدفين على المسلمين، كانا هما مصدر «الحكم القائل بأن الإسلام دين جامد يبقي أتباعه في عصر وسيط بائد ويجعلهم غير

---

(٣٠) - (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، موريس بوكَاي، ترجمة الطبعة الرابعة الصادرة ١٩٧٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص (١٣٥).

(٣١) - (دراسة الكتب المقدسة)، مصدر سابق، ص (١٤٢ - ١٤٣).

(٣٢) - المصدر السابق، نفس الصفحة.

مؤهلين للتكيف مع منجزات العصر الحديث التقنية»(٣٣).

إذن ليست من العلم والموضوعية في شيء تلك المقولة الظالمة التي تتهم الإسلام بأنه سبب تخلف أتباعه علمياً وحضارياً... ولا تملك هذه المقولة المتهافتة التي يرددها أذيال الغرب في بلادنا بسوء نية، أي رصيد من الحقائق العلمية يكفي للاقتناع بها وحملها على محمل الجد.. بل هي وليدة الحقد الدفين القديم الذي يكنه أعداء الإسلام لهذا الدين وأهله، وقد صاغها أولئك الأعداء بهذه الدقة الماكرة بهدف إحداث الطلاق بين المسلمين وإسلامهم، وذلك تمهيداً للقضاء عليهما معاً إن أمكن.. بتعبير آخر هو لون جديد من الغزو الأوروبي، يستهدف هذه المرة تضليل العقل الإسلامي وتدمير قدرته على التميز والوعي.. هذا الغزو الذي أطلق عليه البعض، وهو مصيب فيما أطلقه، تسمية (الغزو الثقافي)... فأسلحة هذا الغزو بالغة الخفاء، بالغة المكر والخبث في أهدافها التي تسعى جميعاً إلى محاولة تقويض بنية المجتمع الإسلامي من الداخل، وبأيدي البعض من أبنائه الذين أسماهم الدكتور البوطي (مجاذيب أوروبا) وقصد بهم دعاة ما يسمى بـ (العلمانية) التي لا يرى لها البوطي مكاناً في المجتمع الإسلامي.. ولبيان فراغ الدعوة إلى العلمانية في مجتمعنا وبيان بعض أبرز أهدافها غير النظيفة، قد يكون من الضروري إلقاء حزمة ضوء سريعة على أسباب ظهور العلمانية في أوروبا....

---

(٣٣) ـ المصدر نفسه، ص (١٣٩).

في أبسط تعريفاتها، توصف العلمانية بأنها تعبير عن ذلك النظام الاجتماعي والسياسي المتحرر من سلطان الدين والمتخذ تجاهه نهجاً حيادياً، فهو لا يؤيد الدين ولا يحاربه، ولكن يُحَيِّده ويدير مبادئه وأحكامه وفق مقتضيات العلم ومعطياته فقط... وتعود نشأة العلمانية في المجالين السياسي والاجتماعي، وكذلك في المجال الفكري، إلى اندلاع الثورة الأوروبية ضد الكنيسة، بعد أن تفاقم شرّها واشتدت ضراوتها وازداد بغيها على العلم والعلماء، كما هو معروف، في وقت كان فيه الشرق المسلم، قد بلغ أعلى درجات الحضارة آنذاك، وصار منارة للعلم والعلماء في شتى أنحاء العالم... يقول (موريس بوكاي) مؤكداً هذه الحقيقة:

«علينا أن نتذكر أنه في عصر عظمة الإسلام، أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية، انجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة. ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد. وكان ابن رشد يُعلم بها. وبها أيضاً كان يتم تناقل العلم اليوناني، والهندي، والفارسي. لهذا السبب كان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة بقرطبة مثلما يحدث في عصرنا أن نسافر إلى الولايات

المتحدة لتحسين وتكميل بعض الدراسات»[٣٤].

ويضيف بوكـاي، موضحـاً تقـدم علماء المسلمـين في شتى الاختصـاصـات آنذاك، ومبيناً فضل أولئك العلماء على نهضة أوروبا الحـديثـة وحضـارتهـا التي تزعم أن إسـلامنا يحول دون اللحاق بركب تطورها، فيقول:

«ولكم هي كثـيرة تلك المخطـوطـات القـديمة التي وصلت إلينا بواسطـة الأدبـاء العـرب ناقلة بذلـك الثقافة إلى البلاد المفتوحة... ولكم نحن مدينـون للثقـافة العربية في الرياضيات، (فالجبر عربي)، وعلـم الفلك، والفيـزياء (البصريات)، والجيولوجيا، وعلـم النباتات، والطب (ابن سينـا)، إلى غير ذلـك لقـد اتخـذ العلم لأول مرة صفـة عالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية»[٣٥].

ويمضي بوكـاي مؤكـداً، أن كل ذلـك المستـوى الـرفيـع من التطور والتقدم الذي وصل إليه علماء المسلمين آنذاك، إنما كان بفعل التـزامهم بإسـلامهم. الإسـلام الذي حضّهم على طلب العلم دون أي حدود.. يقول بوكاي:

«في ذلـك العصـر كان النـاس أكثر تأثراً بالروح الدينية، مما هم عليـه في عصـرنـا..! ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد

---

(٣٤) ـ المصدر نفسه، ص (١٤١).

(٣٥) ـ المصدر نفسه، ص (١٤١).

مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغي على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك»[٣٦].

ولتتخلص أوروبا من هذا الفارق الحضاري بينها وبين الشرق الإسلامي، هذا الفارق الذي صنعه تزمت الكنيسة واضطهادها للعلماء، كان على أوروبا أن تخوض صراعاً ضد هذا المعيق لانطلاقتها العلمية، أي ضد الكنيسة وسلطانها الديني. وقد أسفر هذا الصراع في النهاية عن انحسار سلطات الكنيسة، وقصرها على ما يخص علاقة الإنسان بربه، بعيداً عن قضايا السياسة ونشاطات العلم.

ولكن، لماذا العلمانية في المجتمع الإسلامي، ما ضرورتها؟ لقد نشأت ضرورتها في المجتمع الأوروبي لأن الكنيسة كرست الفكر الديني ضد الفكر العلمي وتطوره، لكن في المجتمع المسلم، وفي ذات الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحارب أي تطور علمي في أوروبا، كان المسلمون ينعمون بثمار حض دينهم على العلم، تلك الثمار التي أينعت معرفة وخيراً ونفعاً عمَّ الناس جميعاً وليس المسلمين وحدهم. . . فلماذا نقلد الأوروبيين، ونفصم علاقتنا بديننا عامدين، وهو سبب نهضتنا العلمية القديمة وحضارتنا التليدة، ولم يكن يوماً كالدين المتزمت الذي سلطته الكنيسة الأوروبية على رقاب العلماء

---

(٣٦) ـ المصدر نفسه، ص (١٤١).

الأوروبيين وحرمت مجتمعاتهم من ثمرات عقولهم؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال، أفضل إيراد ما كتبه الدكتور البوطي في هذا المجال، تأكيداً لما ذهبت إليه، يقول:

«العقائد الكنسية لا تكاد تتفق في أي من جزئياتها وبنودها مع أصول المنطق وموازين العلم، بينما العقائد الإسلامية، تأبى على المسلم أن يقيم وجودها في فكره إلا على بصيرة العلم والمنطق...

نظام الكنيسة أعلن حرباً لا هوادة فيها على العلم واتباع سبيله، قضى في سبيلها على آلاف العلماء والباحثين، وجعل من البحث العلمي جريمة أخطر من جريمة الإلحاد والكفر بالله عز وجل. بينما يقضي الإسلام بإعطاء الريادة في المجتمع للعلم وأهله، ويجعل من البحث العلمي أقدس عبادة يتقرب بها المتعلم إلى الله إن حسنت في ذلك نيته وسلم قصده...»(٣٧).

ويخلص البوطي من هذه المقارنة بين موقف كل من الإسلام والكنيسة الأورروبية، في القرون الوسطى، تجاه العلم، إلى التساؤل، مستنكراً بدوره هذا التقليد الأعمى من بعض المسلمين للأوروبين، فيقول:

«فأي علاقة، بل أي شبه بقي بين الإسلام والنصرانية، حتى يستجيز العقل أن نختلق في المجتمع الإسلامي مشكلة غير موجودة،

(٣٧) - (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر)، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، جامعة دمشق، ١٩٨٨، ص (٢٤٨ - ٢٤٩).

وأن نتوهم مأساةً جعلنا الإسلام في مأمن وعافية منها، ثم نبني على هذا الذي اختلقناه وتوهمناه دعوة إلى علمانية الدولة، لمجرد أن تقر بذلك أعين المجاذيب... مجاذيب أوروبا والمعذبين بحبها؟!»[٣٨].

وإذن، وتأسيساً على مجمل ما سبق، يمكن القول أن لا ضرورة لما يسمى بـ (العلمانية)، في مجتمع الإسلام.. وبالتالي، فإن الداعين إليها، في هذا المجتمع، مسلمين كانوا أوغير مسلمين، هدفهم استخدامها كسلاح ضد الإسلام، «وجسر ينصب إلى حربه والقضاء عليه»[٣٩]. ذلك أن الإسلام ليس ضد العلم - كما بيّنا سابقاً - وإنما هو من أكثر العقائد حضّاً على طلب العلم وإكباراً للعلماء.. وعلى هذا، فإن المطالبة بهجر الإسلام للانطلاق في مضمار التقدم العلمي، ليست نظيفة المقصد، بل ترمي إلى تقويض المجتمع المسلم، وإلى زيادة تبعيته الفكرية والثقافية والعلمية للغرب الاستعماري، أي إلى استمراره ضائعاً ذليلاً متخلفاً، لا حضارة خاصة به، ولا قيماً يتفرد بها، ولا إبداعات يطورها ويسمو بتطويرها إلى مراتب الريادة في الحضارة الحديثة.. وبتعبير مكثف، إن الدعوة إلى علمنة المجتمع المسلم و(تحريره) من الإسلام، إنما تهدف إلى نقيض ما تدعو إليه ظاهراً...

وعلى خلفية الاعتقاد بأن الدعوة إلى العلمانية في المجتمع

---

(٣٨) - المصدر السابق.

(٣٩) - المصدر السابق.

الإسلامي، هي كما وُصفت آنفاً، فثمة ما يدعو إلى الاشتباه بنوايا الداعين إليها، واعتبارهم بعضاً من وسائل الغرب الاستعماري الساعي للهيمنة على البلدان الإسلامية وثرواتها ومقدراتها وحرمان أهلها المسلمين منها بإبقائهم في موضع التبعية، على مختلف الصعد وفي جميع الميادين، وإبقاء بلادهم سوقاً لتصريف بضائعه وزيادة ثرواته.. وفي هذا يقول الدكتور وجيه كوثراني، مبيّناً الهدف الحقيقي للغزو الثقافي الأوروبي للمجتمع العربي الذي هو مجتمع إسلامي في غالبيته:

«إن بعض الاتجاهات التحديثية في الوطن العربي وفي العالم الثالث على وجه الإجمال تحاول ضمن شعار (العقلانية) وعالمية القوانين العلمية (وحتميتها) في تاريخ المجتمعات الإنسانية أن تتحدث تارة عن جوانب إيجابية في علاقة أوروبا «بالخارج»، أو عن ازدواجية أو تعددية ثقافية وحضارية حصلت بفعل التثاقف، أو عن احتمالات لاختيار أيديولوجيات ثورية غربية نافعة للوطن العربي ولمجتمعات العالم الثالث.

«هذه الاتجاهات تعبّر في الواقع عن حالة الضياع الثقافي الذي يميز علاقة المغلوب بالغالب. فعندما تقدم الخيارات من قبل الغالب وحده لا يمكن الحديث عن «ازدواجية ثقافية» ولا يمكن الحديث عن تلاقح ثقافي وأخذ وعطاء.. إن ما يحصل فعلاً في إطار العلاقة غير المتكافئة هو شكل من أشكال التقليد لبعض تيارات الثقافة الغربية،

وشكل من أشكال الاختراق للثقافة العربية الإسلامية يسمح بتكييفها وتطويعها وفق متطلبات النموذج الحضاري للغالب والذي هو بالدرجة الأساسية نموذج انتاجي استهلاكي يتحول معه الإنسان إلى آلة أو جزء من الآلة. . . . »[٤٠].

نعم، هذه هي النتيجة المطلوبة، أي زيادة التبعية للغرب، عن طريق تحويل المجتمع الإسلامي، إلى القيم الاستهلاكية التي تهدر قيمه الروحية السامية، وعن طريق تدمير خصوصيته الثقافية وإلغائها إن أمكن، لتحويل أفراده إلى عبيد في سوق الانتاج الاستهلاكي الأوروبي، لا يصنعون حضارة، ولا يملكون قوة، ولا يبدعون في شيء، وإنما يكتفون بالبقاء على فتات مائدة الغرب الحضارية، وتحت سيطرته وسلطانه، في جميع ميادين الحياة. . .

وبعد، أرجو أن أكون قد وُفقت، في هذا الفصل، إلى المساهمة ولو بقسط ضئيل، في بيان موقف الإسلام من طلب العلوم غير الدينية، وإلى المساهمة أيضاً بتفنيد بعض طروحات تلك التهمة التي يوجهها أعداء الإسلام إليه والتي يزعمون فيها أنه هو سبب تخلف المسلمين الحالي عن ركب الحضارة العلمية الحديثة ومنجزاتها. . وأرجو أن أستطيع في الفصل التالي إلقاء المزيد من الضوء على موقف

---

(٤٠) - (الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي)، مقال للدكتور وجيه كوثراني، مجلة شؤون عربية، العدد (٢٧)، أيار ١٩٨٣، ص (١٢٩).

الإســلام من العلم بشكـل عام، وذلـك في سيـاق حديثي عن أبـرز العـوامـل التي ساعـدت الإسـلام في تحقيق أهـدافه، آنفة الذكر، من جعل طلب العلم فريضة على أتباعه. . .

* * *

الفصل الرابع

عوامل نجاح الإسلام في تحقيق أهداف دعوته إلى طلب العلم

المحتويات :

- تمهيد .

أولاً : ربـــط السعي إلى طلب العلم ، في الإســلام، بالسعي إلى أرقى درجة يمكن للمسلم أن يبلغها في التقرب إلى الله وطاعته .

ثانياً : الربط بين السعي إلى طلب العلم وبين الالتزام بسنّة رسول الله ﷺ .

ثالثاً : حض المسلمين على إجلال علمائهم وتكريمهم واحترامهم .

رابعاً : مكافآت أخروية عظيمة للعلماء وطلّاب العلم في الإسلام .

خامساً : حض العالم على نشر علمه .

سادساً : الحط من قدر الجاهلين .



تمهيد:

تكلمت في الفصل الأول من هذه الدراسة عن حقيقة سبق الإسلام إلى المناداة بإلزامية التعليم، منذ الصغر، وعن إصراره على استمرارية هذه الإلزامية للمسلم حتى نهاية حياته.. ثم بينت في الفصل الثاني بعضاً من أبرز أهداف العملية التعليمية في الإسلام، معرجاً في الفصل الثالث على ما اتهم به الإسلام من أنه سبب تخلف أتباعه عن الحضارة العلمية المعاصرة، ومحاولاً المساهمة في تفنيد هذه التهمة.. ولكي لا أدع هذه الدراسة، وفيها نقص واضح، فكرت في أن أتحدث، ضمن فصل مستقل، عن أبرز العوامل التي ساعدت الإسلام في وصوله، ماضياً، إلى تحقيق جميع أهداف دعوته إلى الحض على العلم وفرض طلبه والسعي إلى تحصيله على كل مسلم ومسلمة...

ومنذ البداية، أرى الإشارة إلى أن جميع عوامل نجاح الإسلام في تحقيق أهداف دعوته إلى طلب العلم، هي عوامل تنبع من أسس المنهج الإسلامي في التفكير والعقيدة، وتنسجم مع مبادىء الإسلام في جميع الميادين... بمعنى أنها ليست عوامل خارجية، ولا غريبة عن جوهره، ولم يستوردها المسلمون من غيرهم، ولم يقلدوا فيها أحداً...

وبتوصيف آخر هٰذه العوامل التي سيلي ذكرها، يمكن القول:

إنها إضافة إلى كونها عوامل ساعدت على نهضة المجتمع الإسلامي، علمياً وحضارياً، فهي وسائل أيضاً، يمكن استخدامها حاضراً ومستقبلاً للوصول إلى ما كان عليه ذلك المجتمع، في عصره الذهبي، يوم كان الإسلام باسطاً سلطانه على نفوس المنتسبين إليه، وعلى عقولهم، وسلوكياتهم... فهي ليست من نوع الوسائل ذات الطبيعة الآنية التي تغدو غير ذات جدوى بتغير الزمن، واختلاف المعطيات من مرحلة إلى أخرى، في مسيرة التطور الإنساني... ذلك أنها من نوع الثوابت، أو القواعد التي لا بدّ من اتباعها مهما اختلف الزمان وتغير المكان.. وتوصيفها على هذا النحو، ليس وليد تعصب عاطفي أعمى للإسلام، وإنما هو وليد دراسة علمية موضوعية لهذه القواعد، ولتأثيرها على النفس البشرية كمحفزات لطلب العلم والاجتهاد في طلبه لبلوغ حدود بعيدة من التفوق فيه...

فكما سنلاحظ لاحقاً، تنبثق هذه العوامل أو الوسائل من قاعدة العبادة في الإسلام، وترتبط بمعطياتها وأهدافها ارتباطاً عضوياً وثيقاً... وما دامت العبادة هي أحد الأسس الأهم في بنية العقيدة الإسلامية، لأنها صلة الوصل بين المسلم وخالقه، فإن هذه العوامل المحفزة إلى طلب العلم تظل ناشطة وفاعلة مؤثرة في نفسية المسلم ووعيه ووجدانه، وكذلك في عقله، ما دام حياً متمسكاً بدينه وملتزماً بتعاليم هذا الدين...

* * *

أولاً: ربـط السعي إلى طلب العلم، في الإسلام، بالسعي إلى أرقى درجة يمكن للمسلم أن يبلغها في التقرب إلى الله وطاعته:

فقـد جعـل الإسلام السعي إلى طلب العلم وتحصيله والتفوق فيه ونشره أقدس عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله «إن حسنت في ذلك نيته وسلم قصده»[١]. ولنا في آي القرآن الكريم، وبعض ما روي من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله، ﷺ، ما يؤكد ذلك. . .

يبيّن الله تعالى في محكم تنزيله أن العلماء هم أكثر عباده خشية منه، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. وبالتالي، فمن البدهي أن يكـون العلماء أكثـر عبـاد الله طاعة له والتزاماً بأوامره ونواهيه. . . ومن كانت هذه حالـه، فمن المؤكـد أنـه أكثر قرباً إلى الله من غيره، وأكثر حظوة عنده من العابد الجاهل. بدليل أنه أتبع ـ سبحانه ـ وعده للذين آمنـوا برفـع درجـات منزلتهم عنده، بوعد مماثل للذين أوتوا العلم من أولئـك المؤمنـين، وذلك حين قال جلّ جلاله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[٢]. كما أشار ـ سبحانه ـ إلى درجة

---

(١) ـ (العقيـدة الإسـلاميـة والفكـر المعـاصـر)، الـدكتـور محمـد سعيـد رمضـان البوطي، مرجع سبق ذكره، ص (٢٤٩).

(٢) ـ سورة المجادلة، الآية (١١).

اليقين التي لا يبلغها من المؤمنين بالله إلا الراسخون في العلم منهم، وذلك حين قال: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾[٣]. وبدهي أن من تطهر قلبه من نوازع الشك، واستطاع أن يوقن بأن كل ما في الوجود هو من عند الله، من خلقه ومن صنعه، بدهي أن يكون أفضل من عابد تنهش الشكوك قلبه وعقله، وهو يصارعها خائفاً إن استكان لها أن يخرج عن طاعة الله، وخائفاً، في ذات الوقت، أن تكون تلك الشكوك صحيحة، فتكون عبادته سيراً في الاتجاه الخاطىء.. أما من وضع قدمه على درجة اليقين بثبات فتراه هادئاً مطمئناً، يعبد الله كأنه يراه، الأمر الذي يؤهله لأن يكون أعلى منزلة من العابد العادي غير الراسخ في العلم والذي لمّا يبلغ درجة اليقين بعد..

وإذا غادرنا رحاب القرآن الكريم إلى حديث رسول الله ﷺ، نجد عديداً من الأحاديث المؤكدة أن طلب العلم هو أقدس عبادة في الإسلام، وأفضلها. الأمر الذي يجعل طلبه في نفس المؤمن الحق، غاية ترجى لذاتها من جهة، ولكونها أقصر الطرق الموصلة إلى رضى الله عز وجل، وإلى أعلى المنازل عنده، من جهة ثانية... وكيف لا، والسعي إلى هذه الغاية يعد امتثالاً لأمر الله ورسوله ﷺ، وعملاً بما دعيا إليه وحضّا عليه؟

---

(٣) ـ سورة آل عمران، الآية (٧).

يقول، عليه الصلاة والسلام، فيما رواه عنه الترمذي: [فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم][٤]. وفي رواية الأربعة عن أبي الدرداء، رضي الله عنه: [فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب][٥]. وفي ذات المعنى، يروي أبو هريرة، رضي الله عنه، عن الرسول، ﷺ، أنه قال: [العلم خير من العبادة، وملاك الدين الورع][٦]. وعن أبي ذر، رضي الله عنه، يقول الرسول ﷺ، في نفس المعنى أيضاً: [لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلّي مائة ركعة][٧].

إذن، مرتبة العالم، في نظر الإسلام وشرعته، تكاد تكون أعلى المراتب، هذا إن لم نرد أن نجزم بأنها أعلى تلك المراتب فعلاً... وهذا العلو في مرتبة العالم ليس جاهاً دنيوياً فقط، يمكن تشبيهه بما يحظى به العالم في المجتمعات غير الإسلامية من احترام وتوقير وجاه عريض، بل هو بالإضافة إلى ذلك، وهو الأهم في نظر العالم المسلم، تكريم رباني لا يوازيه أي تكريم في هذه الدنيا الزائلة... وكيف لا، والاشتغال بالعلم، أخذاً وعطاءً، يرفع صاحبه إلى مرتبة الأنبياء، كما

---

(٤) ـ الحديث (١٨٢٨)، الجزء (٢)، من (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٨٦).
(٥) ـ الحديث (١٨٤٨)، المصدر السابق، ص (٨٩). وانظر (من وصايا الرسول ﷺ، خمس وخمسون وصية)، جمعها ورتبها حمزة محمد صالح عجاج، دمشق، ص (١٥ ـ ١٦).
(٦) ـ الحديث (١٧٥٥)، الجزء (٢)، من (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٦٥).
(٧) ـ رواه ابن عبدالبر، الحديث (٣١٣٩)، المصدر السابق، ص (٣٧٥).

يقول الرسول ﷺ في ما رواه عنه أنس رضي الله عنه: [كاد الحكيم أن يكـون نبيـاً][8]. هذا كله، فضلاً عن الثواب المدخر للعالم المسلم عند ربـه، يوم الحسـاب. . هذا الثـواب الـذي بشـره به الرسول ﷺ حين جعـل ما يقـوم به من اشتغـال بطلب العلم وتعليمه أفضل من العبادة بمفهـومهـا الشائع في الإسلام، وذلك دون أن تسقط العبادة كلياً عن العالم. . بمعنى أن القليل من عبادة المسلم، أو القيام بها لا غنى عنه من فرائض مكتوبة، مع الكثير من السعي لطلب العلم، يكفي لجعل طالب العلم والمشتغـل به أعلى مرتبـة من العاكف على العبادة، بالغاً ما بلغت النوافل التي يقوم بها زيادة عن العالم. . .

مما لا شك فيـه، أن هذا التفضيـل للعـالم، في الإسلام، مع ما ينطـوي عليـه من تكـريم في الـدنيا وثواب مدخر في الآخرة، لا بد أن يشكل في نفسية العالم المسلم، الحسن النية، والمتقرب بعلمه إلى الله طالبـاً رضـاه، يشكـل حافـزاً قويـاً جداً يشحن ذلـك العـالم بطاقات مذهلة، تجعله قادراً على وصـل الليـل بالنهـار، وهـو يسعى في طلب العلم الذي اختار التخصص فيه. . وطبيعي أن تؤتي طاقات وجهود متــواصلة كهــذه ثماراً يانعــة في نهايـة الأمـر، يعم خيرهـا المجتمـع الإسلامي، إذ يرفع من مكانته ومكانة أهله بين المجتمعات الأخرى، ويساعده على التطور المضطرد في الحياة، وعلى التمتع بالمزيد من العز

(٨) ـ رواه الخطيب والـديلمي عن أنس رضي الله عنـه، الحـديث (١٩١٨)، المصـدر السابق، ص (١٠٧).

والمنعة تجاه خصومه وأعدائه . . كما أن خير ذلك الجهاد العلمي المتواصل والدؤوب، لا بد أن يعم المجتمع الإنساني كله أيضاً، إذ أن العالم المسلم لا يمكن أن يفكر بإبداع ما يعود بالضرر على الإنسان، أياً كانت عقيدته وأياً كان مذهبه . . . لأن دينه يمنعه من التفكير بالإضرار بالآخرين، فضلاً عن ممارسة ذلك الاضرار فعلاً على أرض الواقع . . .

أمر آخر تشير إليه هذه المنزلة التي حبا الإسلام علماءه بها، وهذا الأمر هو تهيئتهم نفسياً للتفرغ العلمي، أي الانقطاع لطلب العلم والاشتغال به دون سواه، من أنواع العمل الأخرى . . ومعروف أن العالم في أي اختصاص لا يمكن أن تثمر جهوده بالنتائج المرجوة ما لم يتفرغ لتحصيل العلم في اختصاصه، ولتطوير معارفه بهدفه امتلاك امكانيات أكبر تساعده على الإبداع والتطور نحو الأفضل بشكل مستمر . وإذا كانت المؤسسات العلمية الضخمة في العالم المتطور علمياً اليوم تقدم للعلماء المشتغلين فيها الكثير من المال ووسائل الرفاه لاغرائهم بالانقطاع إلى البحث العلمي، بحيث لا يفكرون بأي أمر أو حاجة حياتية يحتاجونها هم أو أي من أفراد أسرهم، فإن الإسلام لم يقدم أي إغراء مادي لعلمائه الأوائل، وإنما قدم لهم ما هو أكثر إغراء على التفرغ، في نظرهم كمؤمنين ورعين ساعين إلى طاعة الله ورضوانه، أي قدم لهم ذلك التفضيل المدهش، في الثواب والمكانة، على العابدين المنقطعين للعبادة والمتفرغين لها . . وبذلك كانت قوة

جذبه لهم أكبر بكثير من قوة جذب الإغراءات المادية التي تقدمها المؤسسات العلمية لعلمائها اليوم. وبالطبع فإن مصدر قوة الجذب الكبيرة هذه للعالم المسلم هو إيمانه الراسخ والقوي بالله، وحرصه على طاعته والتقرب إليه... ولا أدل على مدى قوة الجذب هذه للعلماء المسلمين من النتائج الباهرة التي أوصلهم إليها تفرغهم لطلب العلم وتطوير ما اكتسبوه من معارف في شتى الميادين.. وهي النتائج التي أشرنا إلى بعض القليل البارز منها في الفصل السابق... فكما هو معروف، ظلّت أبحاث علماء المسلمين، ولفترة قريبة، مراجع رئيسية في أرقى جامعات الغرب، وفي هذا دلالة بالغة على المستوى العلمي الرفيع الذي وصلوه بدافع من رغبتهم القوية في التقرب إلى الله، وانطلاقاً من قناعتهم بأنهم، فيما يعملون، أفضل من المنقطعين للعبادة وأعلى مرتبة منهم في الدنيا والآخرة، أي انطلاقاً من قناعتهم الراسخة بأنهم يمارسون أقدس عبادة في الإسلام...

ثانياً: الربط بين السعي إلى طلب العلم وبين الالتزام بسنّة رسول الله ﷺ..

فكما كان عليه الصلاة والسلام الأسوة الحسنة لأتباعه في كل مجالات الحياة، كان كذلك أيضاً في مجال طلب العلم.. ومعروف، في الإسلام، أن التزام سنّة الرسول عليه السلام واجبة بدليل قوله [من

رغب عن سنتي فليس مني][9]. وكيف يمكن للمسلم الذي حسن إسلامه أن يرغب عن سنّة الرسول عليه السلام وأن يخرج عن جماعته، خصوصاً إذا كان ممن أوتي عقلاً راجحاً يؤهله لطلب العلم؟ وإذن، لا بد من اتباع السنة، في هذا المجال، إن أمكن...

يقول الرسول ﷺ، في حديث مر ذكره، في الفصل الأول: [إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم]... (رواه ابن عدي والطبراني وأبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها)...

واضح من مضمون هذا الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام، طالب علم، بمعنى من المعاني... وواضح أيضاً ذلك الشرط الذي وضعه لطالب العلم في الإسلام، وهو أن يكون القصد من طلبه هو رغبة الطالب في أن يزداد تقرباً إلى الله.. وهذا يعني استحالة اشتغال المسلم بعلم يغضب الله، ولا شك أن أي علم يمكن أن يعود بالضرر على المسلمين أو غيرهم بالشر والأذى هو علم يزيد في بعد طالبه والمشتغل به عن الله ورضوانه...

وهنا، ربما ورد إلى الخاطر تساؤل يقول: إذن هل نعد الاشتغال بعلوم الذرة مثلاً، علماً مرفوضاً في الإسلام، وكذلك هل الاشتغال بتطوير الأسلحة مرفوض أيضاً؟

---

(٩) ـ الحديث (١٤٤)، في (رياض الصالحين)، للنووي، ص (٤١).

إن مدار العمل كله، أي عمل، في الإسلام هو نية صاحبه، بالدرجة الأولى . . . ومعروف أن كل علم ذو حدين، حد خيرٍ وآخر شرير، والنية هي التي توجه نتائج أي علم إلى هذا الاتجاه أو ذاك . . . هذا من جهة، ومن جهة أخرى، حين يتمكن العدو من اختراع سلاح ما ليحارب المسلمين به أو ليظلم غيرهم من الأمم المستضعفة، حتى ولو لم تكن مسلمة، وجب على علماء المسلمين أن يقوموا باختراع مماثل ليدرأوا به خطر العدو عن بلادهم، ولكي لا يصيروا لقمة سائغة لأطماعه . . ولا خوف على المسلم الحق الصادق في إسلامه من امتلاك أي نوع من الأسلحة، لأنه لن يستخدمها إلا للدفاع عن نفسه وبلاده، وفي أضيق الحدود . . . فكما أن النية من أي اختراع هي الموجه لنتائجه إلى الخير أو إلى الشر، فإن النية كذلك هي المتحكم في الأسلحة المخترعة، فهي بيد الإنسان المسلم للدفاع، وبيد غيره للظلم والعدوان، وشتان ما بين نوايا الطرفين ودوافعهما وأهدافهما . . .

ونعود إلى ما يمكن أن تمثله الرغبة في التزام السنّة النبوية الشريفة والرغبة في التأسي بشخصية الرسول عليه السلام، من حافز للإنسان المسلم يدفعه إلى طلب العلم والتفوق فيه . . . وقد تكون هذه الرغبة، كما هي عليه في معظم الحالات المتعينة فعلاً، وليدة حب المسلم لشخص الرسول الكريم صلوات الله عليه . . ومعروف أن من يحب يسعى لارضاء حبيبه، من جهة، وإلى الاقتداء به أحياناً من جهة أخرى . . . وقد تكون الرغبة في طلب العلم، بوصفه التزاماً

بالسنّة النبوية وليدة عامل هام آخر هو الأمر الإلهي الواضح الموجه إلى المسلمين يدعوهم إلى الالتزام بسنّة نبيهم عليه السلام . . . هذا الأمر المتضمن في قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[10] . . . فبهذا الأمر، يتجاوز وجوبُ اتباع السنّة النبوية والتزامها حدودَ الاختيار الطوعي من قبل المسلم ليدخل في مجال الأمر الملزم، وبمجرد اعتباره كذلك، يتحول في نفس المسلم إلى حافز قوي آخر يدفعه إلى طلب العلم، لأن نبيه ﷺ كان طالب علم من جهة، ولأن هذا النبي العظيم جعل من طلب العلم فريضة على المسلمين جميعاً . . . وقد مر بيان ذلك في الفصل الأول . . .

ثالثاً: حض المسلمين على إجلال علمائهم وتكريمهم واحترامهم:

واضح من مجمل ما سبق، أن مكانة العالِم في المجتمع المسلم لا تكاد تدانيها مكانة أي فرد آخر فيه . . وبالتالي، فإن الرغبة في الوصول إلى هذه المكانة من شأنها أن تغدو عاملاً تحفيزياً آخر يدفع المسلم إلى طلب العلم، والتعب في تحصيله والوصول إلى التفوق فيه . . وثمة طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ، يؤكد مجموعها مبدأ وجوب احترام العالم في المجتمع الإسلامي وتوقيره وإظهار كل مظاهر الحفاوة به

---

(١٠) ـ سورة الحشر، الآية (٧).

والتكريم له . . . وأكثر هذه الأحاديث صراحة ومباشرة في الدلالة على ذلـك ، قولـه ﷺ : [ليس منّا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ومن لم يعرف لعالمنا حقه](١١) . فالرسول عليه السلام ينفي أن يكون المرء من جماعـة المسلمـين ، إن لم يعـرف للعـالم حقـه . . . وفي هذا النفي دعوة واضحـــة إلى احــترام العلماء والاعـتراف بفضلهم ، وأداء ما لهم من حقوق على أفراد المجتمع المسلم . . .

ومن مظـاهر الاحترام والإجلال التي دعا عليه الصلاة والسلام أن يحاط بها علماء المسلمـــين ، الـــترغيب في مجالستهم ، للافـــادة من علمهم ، وتوصيفهم بأنهم هم القادة الحقيقيون للأمة ، وكيف لا وهم الـذين يبنـون عقول أبنائها ويوجهونهم إلى ما فيه مصلحتهم في داري الـدنيـا والآخـرة؟ يقـول صلوات الله عليه مؤكداً ذلك : [العلماء قادة والمتقون سادة ومجالستهم زيادة](١٢) .

وفي حديث آخـــر ، لا يتردد عليـه الســلام في أن يحصـر الخـير باثنـين ، بالعـالم وطـالب العلم ، وينفيـه عمن سواهما . . وذلك قوله : [الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما](١٣) .

---

(١١) ـ رواه الـترمـذي عن ابن عمـرو ، وأبـو يعلى عن أنس ، والعسكـري عن عبـادة بن الصـامت . الحـديث (٢١٣٧) ، الجـزء (٢) ، من (كشف الخفاء) للعجلوني ، ص (١٦٨) .

(١٢) ـ رواه ابن النجـار عن أنس بسنـد رجـال ثقـات . الحـديث (١٧٤٦) ، المصـدر السابق ، ص (٦٥) .

(١٣) ـ رواه الطـبراني عن ابن مسعـود ، والديلمي عن ابن عباس . الحديث (٢٨٤٦) ، المصدر نفسه ، ص (٣٢٦) .

ولا يكتفي ﷺ بكل هذا الإجلال والتقدير لعلماء المسلمين بل يتجاوزه ليرفعهم إلى أعلى درجات السلم الاجتماعي في المجتمع المسلم، وذلك حين يجعلهم أمناء الأمة الإسلامية تارة [العلماء أمناء أمتي](١٤)، وتارة أخرى حين يصفهم بقوله عليه السلام: [العلماء أمناء الله على خلقه](١٥). ومعروف أن الأمانة في الإسلام هي أثقل ما يمكن أن يحمله الإنسان، وجعل العلماء أمناء الأمة، يعني تحميلهم عبء هدايتها والحفاظ على التزام الناس بدينهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كائناً من كان مقترفه منزلة وجاهاً وسلطاناً . . . هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعني بقوله عليه السلام أن العلماء أمناء الأمة، ليس علماء الدين فقط، وإنما العلماء المتخصصون في سائر العلوم الأخرى. . لأنهم بتفوقهم واختراعاتهم يدرأون عن الأمة الإسلامية ما يحتمل أن يهددها من أخطار، ويحمون بنتائج علمهم أمنها ووجودها ودينها.

ولا شك أن أعلى مرتبة على الإطلاق، رفع الرسول عليه السلام علماء أمته إليها، هي حين جعلهم ورثته وورثة الأنبياء. . يقول ﷺ: [العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة

---

(١٤) - رواه الديلمي عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه، الحديث (١٧٥٠)، المصدر نفسه، ص (٦٥).

(١٥) - رواه القضاعي وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه، الحديث (١٧٤٩)، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الأنبياء][16]، وفي حديث آخر مشابه يقول عليه الصلاة والسلام: [إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر][17]. أفبعد هذه المنزلة ما هو أرفع؟ بالتأكيد لا.. فحسب الإنسان المسلم الذي يجد في نفسه القدرة على أن يصير عالماً، حسبه دافعاً إلى طلب العلم أن يصير وريث الأنبياء صلوات الله عليهم... وأي كنز عظيم ذلك الكنز الذي يرثه إن صار عالماً..

وهكذا نلاحظ أن الإسلام قد جعل من بين أهم المحفزات على طلب العلم ما أحاط به العلماء وطلّاب العلم من تبجيل ومن مكانة مرموقة لا تدانيها مكانة أي فرد من أفراد المجتمع المسلم.. وبهذا استطاع الإسلام، بحكمة نبيه عليه السلام، أن يُحَوِّل صبوة الإنسان الفطرية إلى المكانة العالية في المجتمع لعامل من أهم عوامل نجاح أهداف دعوته إلى طلب العلم، إذ تكاثر طلّابه من المسلمين، وازدادت رغبة كثيرين منهم لبلوغ مرتبة العالم...

---

(١٦) ـ رواه أبو يعلى عن علي كرّم الله وجهه. الحديث (١٧٤٥)، المصدر نفسه، ص (٦٤ ـ ٦٥).

(١٧) ـ من وصايا الرسول ﷺ، مصدر سبق ذكره، ص (١٥ ـ ١٦).

رابعاً: مكافآت أخروية عظيمة للعلماء وطلّاب العلم في الإسلام:

لم يكتفِ الإسلام بإحاطة علمائه، في الدنيا، بكل ما ذكر آنفاً من مظاهر الاحترام والتبجيل والإجلال، تشجيعاً للمسلمين على طلب العلم والاستزادة منه، بل وعد العلماء وطلّاب العلم معاً بمكافآت أخروية أعظم شأناً وأبلغ تأثيراً في النفس المؤمنة، من كل ما يمكن أن تحظى به في هذه الدنيا الزائلة...

وأولى هذه المكافآت التبشير بالجنة... فقد جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة](١٨)، وزيادة منه في ترغيب المسلمين بطلب العلم، أضاف عليه السلام قائلاً: [وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء](١٩).

ولم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بتبشير العلماء بالجنة، بل بشّر من أدركه الموت منهم وهو يطلب العلم، بأعلى الدرجات في الجنة..

---

(١٨) ـ رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي وابن عساكر عن أبي هريرة. الحديث (٢٦٤٠)، الجزء (٢)، من (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٢٨٣).
(١٩) ـ الحديث المذكور في الإحالة رقم (١٧) الآنفة.

يقول ﷺ: [من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة][20].

هذا إذا مات العالم، أما ما دام حياً يسعى في طلب العلم ويعلمه لغيره، فقد زف إليه الرسول عليه السلام البشرى بمكافآت أخرى عظيمة أيضاً.. منها أن الملائكة تحفه بأجنحتها وهو يشتغل بالعلم أو يطلبه.. يقول صلوات الله عليه، مخاطباً صفوان بن عسّال المرادي حين جاءه في مسجده طالباً العلم: [مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب][21].

إن تشجيعه لطلّاب العلم، صلوات الله عليه، واضح في هذا الحديث، فهو لا يدع فرصة إلا ويحبب طلب العلم إلى نفوس أصحابه ويحضهم عليه، ويبارك اقبالهم وسعيهم على طلبه، وذلك لإدراكه ما للعلم من أهمية في حياة المجتمع المسلم، ولدوره في قيادة الناس قاطبة إلى دروب الخير والهدى... وقد بلغ من تشجيعه ﷺ لأمته على طلب العلم، أن بشّر العالم المسلم الذي تعلّم لله وعلم العلم لله بأنه قد صار في عرف أهل السماء عظيماً. يقول عليه الصلاة

---

(٢٠) ـ رواه الدارمي عن الحسن رضي الله عنه. الحديث (٢٤٥٠)، الجزء (٢)، من (كشف الخفاء)، ص (٢٤٣).

(٢١) ـ أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد. من وصايا الرسول ﷺ، مصدر سبق ذكره، ص (١٦).

والسلام: [من تعلّم لله وعلّم لله كتب في ملكوت السماوات عظيماً][22]. . . وكيف لا يكون كذلك، والرسول نفسه ﷺ يبشره بأن الله قد حب العلماء بالفضل والثواب إلى درجة صار معها ـ كما يقول عليه الصلاة والسلام [نوم العالم عبادة وصمته تسبيح وعمله مضاعف ودعاؤه مستجاب][23]. . . أفبعد هذه المنة وهذا الإكرام الذي أعذقه رب العالمين على المخلصين من علماء الإسلام، يوجد ما هو أكثر حفزاً للمسلمين على طلب العلم. . .؟ لا أعتقد. . . والواقع، أن تبشير الرسول عليه السلام للعلماء بكل هذه المكافآت العظيمة وأعظمها، دون شك، الجنة ـ غاية المسلم المؤمن وحلمه ومطلبه ـ قد فعل هذا التبشير فعله في نفوس المسلمين الأوائل، فتسارعوا يطلبون العلم من كل مصدر أتيح لهم الاتصال به، حتى صاروا سادة علماء أهل الأرض في زمانهم. . .

خامساً: حض العالم على نشر علمه:

(٢٢) ـ رواه الديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما. الحديث (٢٧٧٦)، الجزء (٢)، من (كشف الخفاء) للعجلوني، ص (٣٠٩).
(٢٣) ـ رواه البيهقي. الحديث (٢٨٣٩)، المصدر السابق، ص (٣٢٥).

وهذا عامل هام آخر ساعد الإسلام على تحقيق أهداف دعوته إلى طلب العلم . . . فالعالم المسلم لا ينبغي له أن يكون أنانياً، يحجز ما تعلمه في صدره، ولا يعطيه لغيره، بل من الحرام في الإسلام أن يفعل ذلك . . وتحسباً من أن يفعل العالم المسلم مثل هذا الفعل غير المحمود، نرى الرسول ﷺ، ينذر ويتوعد من حبس علمه في صدره وأبى أن ينفع به مجتمعه والناس جميعاً . . . فهو إن فعل ذلك، وأصر على الاستمرار في فعله، لم يخسر كل ما ذكر من مكافآت، في الدنيا والآخرة، وإنما خسر نفسه وآخرته أيضاً، وانقلب علمه وبالاً عليه لأنه لم يعمل به ولم ينفع به أحداً . . . وفي هذا يقول صلوات الله عليه: [كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به][٢٤] . . . وفي حديث آخر يقول ﷺ: [تعلموا العلم وعلموه الناس][٢٥] . . ذلك أن [العلم لا يحل منعه][٢٦] . . .

سادساً: الحط من قدر الجاهلين:

بدهي أن يجعل الإسلام الجاهلين موقع ازدراء من الآخرين، وأن يضعهم في أسفل السلم الاجتماعي الذي رفع العلماء إلى أعلى

---

(٢٤) ـ رواه الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما. الحديث (١٩٨٠)، المصدر السابق. ص (١٢٤).

(٢٥) ـ رواه البيهقي عن أبي بكر رضي الله عنه. الحديث (٩٩٦)، المصدر نفسه، ص (٣٠٨).

(٢٦) ـ رواه الديلمي عن أبي هريرة، الحديث (١٧٥٨)، المصدر نفسه، ص (٦٧).

درجـاتـه . . . وإذا كان تحصيل العلم في الإسلام هو الغنى الحقيقي ، فإن الجهل هو الفقر الحقيقي أيضاً. يقول عليه الصلاة والسلام : [لا فقر أشد من الجهل] . . والسبب في قرن الجهل بالفقر، هو أن الجاهل لا يملك من معـرفـة بهذه الحيـاة إلا قدر ما يبقيه حياً . . ولكن لا سمو يستطيعـه ، ولا مطـامح تراوده . . ومثل ذلك القدر التافه من المعرفة في الحيـاة، هو فقــر بالفعــل ، لأن صاحبـه لا يعيش الحيـاة وإنـما على هامشهـا ، ولا يفكـر في آخـرة تنتظـره ، وبـالتـالي ، تكثر أخطاؤه حتى يتهـدم من الـداخـل ، فرداً ومجتمعاً . . وربما لهذا وصف عليه الصلاة والسلام الجاهل بأنه أعمى بصيرة . . [ليس الأعمى من عمي بصره، الأعمى من عميت بصيرته][27] .

وهكذا نخلص من مجمل ما سبق إلى القول / النتيجة ، إن ما توسل به الإسلام من وسائل ، وما وضعه من حوافز لدفع المسلم ، فرداً أو مجتمعاً ، إلى طلب العلم والتفوق فيه ، على مختلف المستويات وفي الميـادين العلميـة كافـة ، كانت وسائل وحوافز قوية وناجعة إلى أقصى الحـدود . . ذلـك أنها اعتمدت على الترغيب والترهيب في آن واحد ، وأشبعت المطامح والرغبات الدنيوية التي تتوق إليها النفس البشرية في هذه الدنيا ، من احترام وتبجيل وتقدير واعتراف بالفضل على الجهد المبــذول ، كما أشبعت الـرغبـات الإيـمانيـة للمسلم العـالم ، إذ بشـره

---

(٢٧) ـ رواه البيهقي والعسكـري والـديلمي عن عبدالله بن جراد مرفـوعـاً . الحـديث (٢١٣٣)، المصدر نفسـه ، ص (١٦٦) .

الإسلام بأن جائزة سعيه إلى طلب العلم هو الجنة . . . وأي مسلم لا يرجو ذلك ولا يتوق إليه ولا يحلم به ويبذل الكثير من جهده وتفكيره ووقته للفوز بدخول الجنة يوم القيامة . . . ولكي لا يشتت الإسلام طلّاب العلم المسلمين بين رغبتهم في الاستزادة والإكثار من الطاعات والعبادات النافلة التي تقرب المسلم إلى الله وتزيد في ثوابه ، دنيا وآخرة ، وبين رغبتهم في التفرغ لطلب العلم ، في أي اختصاص يختارونه ، عمد الإسلام إلى دمج ثواب العبادة بثواب التفرغ للعلم ، بل جعل التفرغ للعلم أقدس عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه ، وبذلك مكّن الإسلام العلماء المسلمين من التفرغ للبحث والتحصيل العلميين دون أن يساورهم الإحساس بالتقصير ، ودون أن يعذبهم تبكيت الضمير حين يرون غيرهم من المسلمين أكثر صلاة منهم أو أكثر صياماً . . . إلى غير ذلك من عبادات . . فهم مطمئنون ، حسب وعد الإسلام لهم ، بأن ما يبذلونه من جهد في تحصيلهم العلمي أعظم ثواباً من ثواب المنقطعين للعبادة في المساجد دون طلب للعلم . . وهذا الاطمئنان ساعدهم كثيراً على الابداع والتفوق ، لأن جريهم في مضمار العلم الذي ترغبه نفوسهم يساوي ، بل يسبق في ثوابه ، جري غيرهم في مضمار العبادات المختلفة . .

من جهة أخرى ، تتجلى عظمة الإسلام في هذا المجال ، بتلك الدعوة القوية للعلماء المسلمين إلى ضرورة نشر علمهم في مجتمعهم ، وإلى ضرورة قيامهم بدور المعلمين أيضاً في ذلك المجتمع ، لتتصل

دورات الأجيال ببعضها، في مجال التطور العلمي، وبحيث يكون كل جيل مسلم أكثر تطوراً وعلماً من الجيل الذي سبقه وهكذا..

وبعد، أرجو من الله أن أكون قد وُفقت إلى ما أخدم به هذا الدين وأهله. وأقر وأعترف في ختام هذه الدراسة، بأنني قد أكون أخطأت في بعض المواضع، وقد أكون قصّرت في مواضع أخرى... فإن حصل مثل هذا أو ذاك مني، فهو عن غير قصد، وأستغفر الله منه، وعزائي وعزاء كل مؤمن، فيما أعمله ويعمله غيري من الناس، القناعة الراسخة بأن الكمال لله وحده، وأن من طبيعة العمل البشري أن يظلّ ناقصاً. وأختم قولي في هذه الدراسة بالدعاء إلى الله تعالى، أن يجعل ما ألهمني كتابته في السطور السابقة علماً نافعاً للمسلمين الذي يتاح لهم أن يقرأوه، وعملاً نافعاً لي حين ألقى ربي عز وجل.. والله من وراء القصد.

* * *



مصادر البحث ومراجعه

تمَّ إعداد هذا البحث بعون الله، وبالرجوع إلى :

(١) ـ القرآن الكريم .
(٢) ـ كتاب (كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)، تأليف المفسّر اسماعيل بن محمد العجلوني، جزآن، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عام ١٣٥١ للهجرة .
(٣) ـ (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين)، تأليف أبوزكريا يحيى بن شرف النووي، المكتبة الأهلية، بيروت، دون تاريخ طبع .
(٤) ـ (فجر الإسلام)، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩ .
(٥) ـ (الإسلام والعرب وأعداؤهم ـ الهجمة الامبريالية الصهيونية الجديدة). مطبوعات أوروبا والعرب، دمشق، تشرين الأول، ١٩٨٩ . كتيب مجهول المؤلف .
(٦) ـ (من الفكر والقلب ـ فصول من النقد في العلوم والاجتماع والآداب)، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٧٢ .
(٧) ـ (مختصر منهاج القاصدين)، تأليف الإمام الشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة المقدسي، علّق عليه : شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط،

وقـدّم له محمـد أحمـد دهمان ، دار البيـان ومؤسسـة علوم القـرآن ، صدر في دمشق وبيروت عام ١٩٧٨ .
(٨) ـ مجلة المعرفة السورية ، العدد (٢٣٤) ، السنة (٢٠) ، آب ١٩٨١ .
(٩) ـ (دراسة الكتب المقـدّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، موريس بوكاي ، ترجمة الطبعة الرابعة الصادرة عام ١٩٧٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
(١٠) ـ (العقيـدة الإسلامية والفكر المعاصر) ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، جامعة دمشق ، ١٩٨٨ .
(١١) ـ مجلة شؤون عربية ، العدد (٢٧) ، أيار ١٩٨٣ . تصدر عن جامعة الدول العربية في تونس .
(١٢) ـ (من وصايا الرسول ﷺ ـ خمس وخمسون وصية) ، جمعها ورتبها حمزة محمد صالح عجاج ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٤٠١ هجري .
(١٣) ـ (معجم ألفـاظ القـرآن الكـريم) ، مجلدان ، مجمـع اللغة العربية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ .
(١٤) ـ (الأحـاديث النبـويـة في الأخـلاق والاجتماع والمدنية) ، اختارها من صحيحي البخـاري ومسلم ورتّبهـا وعلّق عليهـا حمد عبيـد ، مطابع لبنان ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٨ .



فهرس الكتاب

* * *